يوسف الفرماوي

الذي صار قصيدة

قصص

لوغاريتم
للنشر والتوزيع

الذي صار قصيدة

رقم الإيداع: 2021/9047

الترقيم الدولي: 978-977-6799-50-9

تصميم الغلاف: إسلام أحمد

الإخراج الفني: يوسف الفرماوي

مراجعةلغوية: كارم أحمد

المدير العـــــام: إيناس ناصر

المدير التنفيذي: أحمد حسن

***

Logaritmpublish@gmail.com

01550095373

***

جميع الحقوق محفوظة©

يمنع منعًا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواءً بالطباعة أو النشر الإلكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقًا لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

يوسف الفرماوي

الذي صار قصيدة

قصص

إهداء

إلى العبث.

كنا نجاور العالم

وننناديه «بجارنا» العزيز

ما إن أمطرت السماء قنابل

تشتت «جارنا»

أماتت عاشقين،

أحيت قبرين،

أذبلت وردتين،

ويتَّمت أمنيتين.

يا اللَّه لِمَ كل هذا؟!

من سيعبدك الآن؟!

من سينشر المحبة؟!

العالم يموت.

المحبة تموت.

الحرب لا تموت،

والبشر يموتون.

ينبت من ظهرك من يكرر الحكاية، يولد وحيدًا، يحبو، ثم يخطو، ومع جريان الزمن يجري؛ فيعيش محزونًا متقلبًا حاله، فيجن من سعادته التي تهجم عليه كالوحش مفترسة وحدته وحزنه. وتهب ريح لتخلع تلك الزهرة، فلا تغرسها يا أخي، فمع كل بذرة نبذرها، نرعاها بتجاربنا، يسقيها مرور الوقت علقمًا، ثم ترحل الزهرة بعد نموها وزهو حسنها كالصِّبا، وتُنسى كملايين الزهرات التي أهداها الرجال الهائمين إلى حبيباتهم.

***

قصص قصيرة

جامع الفناء1

أمـي كانـت تخـزن القُـوت في راحتيهـا، وأبي كان يخـزن مـال القُـوت في عضلاتـه، وجامـع الفنـاء(*) جمـع مـا كنـزا طيلـة عمريهما عندمـا أخـذ كـف أمـي، فَفَنيـت البركـة، وسـلب عضـلات أبي فصرنـا شـحاذين، فانهـدَّ البـدن وفنـي الجسـد، ثـم بعـد ذلـك سـلب أرواحنـا.

❋❋❋

(*) هو ملاك متخيل، أفعاله قريبة من أفعال ملك الموت

جامع الفناء2

- **متى يكوِّم جامع الفناء هذا الزمان لينكمش؟**

أسمع همسًا يقول:

- **قريبًا.**

ويترجم عقلي

- **ما زال بعيدًا.**

والأصعب هنا، أني لا أدري أسيأكل جامع الفناء الوقت، أم سيأكلني؟

❋❋❋

المدينة التي تتكلم

لا أعـرف أيـن نحـن الآن، ثمـة شـمس حارقـة؛ وعطـش شـديد يـأكل حلقـي، وعـرق غزيـر ينصـبُّ.

أنـا أقـف عـلى مشـارف مدينـة خاويـة مـن الحيـاة، صحـراء إن شـئت تسـميتها بذلـك، قـرأت عنهـا مـن قبـل أنهـا المدينـة التـي إذا وصلـت لهـا يومًـا؛ تتكلـم، وتحـكي قصصًـا لأنـاس مـروا عليهـا، وقصصًـا لأنـاس عمَّـروا فيهـا، وأسـاطير لم تسـمع بها المـدن المجاورة، لأنـه ببسـاطة، ليـس ثمـة مجـاور، مدينـة وحيـدة وتتكلـم.

❋❋❋

الاصطدام بالحياة

وأنـا في طريقـي إلى النهايـة الحتميـة، اصطدمـت بالحيـاة، وصُدمـت مـن مـدى وحشـيتها، جاءتنـي عابـرة كنشـوة زائلـة، لم أكتـفِ بمجالسـتها ولا بالحديـث معهـا، كانـت فاقـدة الوعـي، وأنـا في أوجِّ صحتـي، قلـت لهـا:

- **ذاهب إلى الظلمة.**

قالت:

- جئـت منهـا وأعـود إليهـا مـع كل راحـل، أنـا أيضًـا ذاهبـة إلى ظلمتكـم تلـك التـي تخدعكـم بأنهـا حيـاة، أنـا الحيـاة، أُنـسى كالمـوتى، وأُذكـر عنـد الفـرح، وأُلعـن عنـد النائبـة، أنـا ظلمـة في ظلمـة، فمـن أنتـم؟

بعد طول صمت:

- نحـن مـن نلعنـك، ولا نلعـن شرور أنفسـنا، نحـن الظالمـون لـكل جـزء مـن كياننـا، نحـن الظلمـة نفسـها، لكـن أعتقـد أن في روحنـا يكمـن النـور.

تركتها، وذهب كل منا إلى مصيره المجهول.

***

الذي صار قصيدة

كان مشتتًا وغير مفهومٍ كمجاز وسط نص لا يتضمنه ديوان، غير معنون، غير واضح المعنى، وحيدًا كقصيدة أولى وأخيرة.

لم يتفوَّه بأي شيء، لأنه ليس لديه وجه، ومع أنه من دون يد صار هو القصيدة.

كانت تتدفق من روحه الكلمات، ولأنه غير محدد الاتجاه كهذا النص؛ مات ولم يسمع به أحد.

مات كقصيدة لم تخرج من رحم الكلمات، مات لأنه لم يكتبه شاعر، قد يكون الشاعر دوَّنه في مخطوطة ما ضاعت ولذلك لم يظهر، لأن في الغالب الشاعر قد مات هو الآخر، لأنه لم يعرف طريقًا لنشر أشعاره التي ماتت في رحمه، الكلمات إن لم تنهكها اغتصابًا في عقلك وروحك ستموت، حينما تغتصبها تُوِّلد قصيدة، أو نصًّا، أو أي شيء له معنى يبحث عن روح القراء ليسكن فيها، وأينما تدللها تموت مسخًا.

❋❋❋

حلم فانتازي

أودُّ أن أعيش في حلم فانتازي، تصير فيه الحياة ذرة بالمعنى الحرفي، والبشر فيه غير موجودين، ولو لم يتحقق أملي، أود أن أكون عشبة تأكلها عنزة، أو وردة تستنشقها عصفورة، أو عدم يصدمه لا شيء.

حلم، لا توجد به معانٍ كالحدود، الحرب، السلاح، لا توجد به دواعٍ للشفقة.

حلم فانتازي، تبدأ فيه حياة الإنسان عندما تبدأ وردة في النمو، أو عندما يقبِّل حبيب حبيبته.

أودُّ أن أحيا في حلم فانتازي، لا توجد فيه أحلام إلا وهي محققة.

أودُّ أن أحيا في حلم فانتازي، يعيش فيه الإنسان.

***

موت طفل

أُعلِنت الحرب، ولبى أبي النداء، أمي كانت تطعمنا الصبر والأمل، كانت تقول:

- ممَ تخافون؟

فردَّ أخي الأكبر وهو يدمع:

- الحرب لا تقتل فردًا واحدًا، بل أسرة بأكملها.

انتهت الحرب، ولم يعد أبي بعد، مرت ثلاثة شهور ولم يعد، خبر الهزيمة كسر أملنا، وفي الشهر الرابع كانت ميلشيات العدو تأكل أراضي مدينتا، خرجت الأمهات ومعهم أمي لأنه لم يكن ثمة رجال للدفاع عن حقنا في الحياة.

تردد صدى الرصاصات وهي تخترق صدور الأمهات. لم يبقَ في المدينة سواي ومجموعة من الأطفال تعدوا المائة. لا أعرف ما أفعل يا اللَّه، أنا طفل في العاشرة من عمره والألف من حزنه، أين الحياة التي هيأتها لي، ما مصيري الآن؟

في الصباح قُذِفتْ المدينة بصواريخ محملة بالموت.

❋❋❋

الحياة على سطح يسقط

كنت أتهيأ للنوم، وعندما أغمضت جفوني، تهيأ أمامي شيء شبيه بالسطح، أبيض وأملس، ودائري وسميك. حسبته الكون، أو هكذا خُيِّل لي.

استيقظت ووجدت نفسي نقطة صغيرة في هذه الدائرة، نقطة تكاد لا ترى بالعين المجردة، أين أنا يا اللَّه، ما الذي يحدث، لقد كنت أحلم.

يبدو أن الحياة حلم وشيء واقع ونحن نعيش فيه. ونسقط في سُمك تلك الدائرة كلما حلمنا بحلم، وتسقط معنا الدائرة، إلى أن تنتهي الأحلام، أو الحياة، أيهما أقرب، وإن الحياة لتنتهي عندما لا يتحقق حلم، لكنها لا تمل من أن تعود من جديد، في النهاية، لولا الأحلام لما كانت الحياة.

❋❋❋

أفكار منتحرة

سرت في رأسي، وجـدت فكـرة تنـوي الانتحـار، فجالسـتها وتناقشـنا.

قالت:

- البشر مملون.

قلت:

- لكنهم طيبون ومرهقون من الحياة، لا غير.

قالت:

- لا يهمهم غير أنفسهم.

قلت:

- ومن أنفسهم؟ إنها الكل من كل جزء يسعدهم.

طـال الحـوار، لم أسـتطع أن أقنعهـا، رغـم مـا أوجدتـه لهـا مـن مـبررات بـلا كلـل، إلى أن ملتنـي ومللتهـا.

فـررتُ مـن رأسي، ووجـدتُ أني لم أكـن مقنعًـا، حينـما قـررتُ أن أدخـل إلى رأسي ثانيـة، وجـدت ملايـين الأفـكار تنتحـر.

❋❋❋

الرجل البذرة

هكـذا كانـوا ينادونـه، الرجـل البـذرة، كان ضئيـلًا جـدًّا، وحقيقيًّا جدًّا.

مـن كـثرة السـخرية صـار مـع جمـع السـاخرين، تحمَّـل فـترة، ولكنـه لم يقـدر عـلى المواصلـة، القـدر لعنـه، فصـار بـذرة، وأمـسى يـركل كأي قشـة تذروهـا الريـح.

لم يقــدر عــلى الانتحــار، لأن الســكين حجمــه أكــبر منــه، ولم يعـرف الحـب، لأنـه مجـرد مسـخ، لـن تقبـل بـه فتـاة إلا لـو كانـت فتـاة بـذرة.

لعن القدر ولعن الحياة، وقال: **لِمَ أرى الناس كأنهم وحوش؟**

❋❋❋

المنعزلون

لم يكن هنالك سوى الدم بعدما رفض البشر عَهد المنعزلين..

قالوا للبشر كثيرًا:

اتركونا نعيش معكم دون عُزلة لن نؤذيكم بحق الجحيم، وقدموا أغلى ما يملكون -سلسلة السلالة- وقالوا خذوها وإن وجدتم منا تعدٍّ عليكم قوموا برميها في النيران وسنحترق جميعًا ولن ترونا مجددًا.

فأبى البشر ذلك العهد، ويا لغباء قراراتهم..

تجمع المنعزلون جميعًا وانقضُّوا على كل بلد بجيوشهم، الأعناق تؤكل بشهيةٍ مفتوحة حد الانتهاء، والعيون تجمع في ساحة للصغار ليلتهموها، والأذرع يُصنَع منها حساءً من العظم المخليِّ من اللحم، والألسنة تربط ببعضها البعض لتصنع جسرًا، لا تسألني كيف؟ هذا ما حدث!

هذه انتفاضة جماعة من المنعزلين، انعزلوا لإهمال العالم إياهم، وعدم توفير المؤن اللازمة لمعيشتهم، لقد نسيت وصفهم؛ اعذرني لحماقتي، كانوا أطفالًا لا يهتم بهم أحد فقرروا صُنع عالمهم الخاص.

***

الحياة

ككل الليـالي لا أفعـل شـيئًا جديـدًا، سـاكنة في كل الأوقـات، أعيـش بـلا فائـدة!

لكن من دوني لما كان كل هذا الجنون وهذا الشقاء.

***

قصص

أرض القصص.. والمنفيون

1

أرض القصص

مكان به من البهجة ما يردُّ إلى الروح راحتها من بعد كدرها، لا يوجد بها بشري، ولكن توجد فيها حيوات لأولئك البشر المنفيين، إنها الجنة، لا أعرف كيف جئت إليها، إنه حلم! لا يهم؛ أنا في أرض القصص الآن.

في أرض القصص، لا يوجد سوى شارع وحيد لا يبصر المرء نهايته، ثمة جدار موازٍ له.

وأنا أتفقد القصص الملقاة على الأرض، أشعر بالنشوة، يا اللَّه أريد مكانًا كهذا أعيش به إلى الأبد.

عندما وجدت نفسي هنا، كانت هناك عبارة موجودة على الجدار أول يمين من الطريق، «**ارتوِ من القصص، فمهما ارتويت لن تمل، مرحبًا بك في أرض القصص.**»

مشيتُ، وأنا أنهل وأرتوي كأنني سقطت في بئر، وإذ بالسماء تمطر، إنها تمطر أوراقًا، أظن أنها مليئة بالقصص، الأوراق المتساقطة خفيفة، وتداعب وجهي في رقة، ظللت ماشيًا، غير مبال بكل ذلك، شعرت أني هنا لقصة بعينها، توقفت أبواب

السـماء عـن الدفـع بالقصـص، وإذ بآخـر الأوراق تسـقط، لكنهـا مجمعـة، في رَقٍّ صغـير، مكتـوب عـلى صفحتـه الأولى «**المنفيـون**»

❋❋❋

2

المنفيون

سأعتزل عن دوري الآن، لأقرأ.

بلغني أن عبد الكريم الجيلي قال في الدنيا: «**هذا الوجود خيال، في خيال، في خيال.**» أما أنا فأقول: **هذا الوجود، منفى، في منفى، في منفى.**

بدأ هذا الكون بالنفي، قصة الخلق وقبضات التراب تعرفونها جميعًا، ثم خُلِق آدم، خُلِق من تراب، وفي الجنة، هذا نفي لأصل التراب.

ثم نُفِي آدم من الجنة، وأنتم صورة لهذا النفي على طول عمركم.

أيها السائر في أرض القصص، أأنت غير منفي؟

هذا الكون منفى كبير، صنعتُه لأنفي إليه الأحاسيس والمشاعر، وكلاهما أصل الإنسان، الحب منفى وهروب من الوحدة، كل شيء في حياتكم هروب من شيء إلى شيء.

أنتم قد تكونون هربتم من تربتكم إلى روح هائمة وتلبستموها وعشتم فيها.

أصلكم النفي، وإليه ستعودون.

***

3

أرض القصص

ما معنى هذا؟ لو هذا حلم أيعني هذا أني في منفى من واقعي!

هذه القصص، هذا المكان، يجب أن أهرب من هنا، لا أحب أن أكون ضمن هذا، لكن لو أصلنا منفى وإليه سنعود، أيعني هذا أن الكون أصله المنفى والآخرة هي المنفى الأخير، كيف ستكون، أريدها مثل هذه الأرض.

❋❋❋

الموتى الأحياء

كعادتي كلَّ صباح أسير في الشوارع بلا وجهة وبلا حدٍّ معين، لا بأس فتلك عادتي اعتدتها منذ العشرينيات، لكن أن تواجه كل صباح مشكلة نتيجة ذلك عليك حينها التوقف وألا تكون أحمقًا.. كنت أحمقَ أعترف بذلك.

أتذكر في أحد المرات أخذتني قدماي إلى المقابر، ويا لبؤس حظي أتريد معرفة الذي حدث.. حسنًا أعلم ذلك أنا أيضًا أريد أن أفضي لشخصٍ بما رأيت، لكن عليك ألا تقاطعني.

حسنًا أعلم أنك تحب القصص فلذلك لن تقاطعني..

بدايةً، المقابر كانت خاوية كأنها المدينة الفاضلة التي كان يتمناها أفلاطون وما قامت، وكالعادة كما تعرف البداية، ليست كالمنتصف، أو النهاية يقولون إنها أصعب شيء في كل أمر.. ولكني أقول الأمور برمتها صعبة حتى تنتهي منها..

كانت المقابر مقسمة إلى حارات، والحارات مليئة بالقبور ولكنها خاوية، أين ذهب أولئك الموتى؟!

لم أبالِ بهذا، لأن ما رأيته كان إجابة سؤالي ورعبي أيضًا!

مررت بكل الحارات وكالعادة القبور خاوية!

أهم في نزهةٍ وأنا لا أعلم؟!

رعبي بالطبع لأنني ما وجدت الموتى في مكانهم، بل ما زاد رعبي أنني رأيتهم هناك بأول المقابر يتسامرون، ومنهم من يمرر يده اليمنى على ثَنْيَاتِ إحداهن، واليسرى ترفع القداحة لإشعال السيجار الذي بثغره، وهناك أُناس عكس ذلك تمامًا يصلون كأنهم تمنوا تلك اللحظة التي تحررهم من ذلك الظلام، وآخرون يقتلون بعضهم بعضًا، وبعضهم يزني، والبعض الآخر اتخذ آلهة من دون الله وعكف على عبادتها، وآخرون يجلسون على جانب الطريق غير مبالين بما يدور حولهم فقط اهتموا بالقراءة، ليهربوا من بعض الحمقى الذين أصبحوا لا يهمهم إلا أنفسهم أو مصلحة فريقهم، وهناك أشخاص لم يعرفوا القراءة أو سببًا للنزاع لم يعرفوا غير الفقر وانتظار فريق يفوز كي ينعموا بشيء من فوزه، والقراء يضحكون من هؤلاء وهؤلاء، هرولت سريعًا نحو بداية المقابر كي ألوذ بالفرار ولم أستطع؛ فالطريق كان مغلقًا من كل النواحي، انتظرت الليل وإذ بهم يعودون إلى مقابرهم مرة أخرى، فلذت بالفرار من ذلك الصخب، مساكين هؤلاء أظنهم كل يوم يفعلون نفس الأمر لا ريب في ذلك!

أم أنني بائس الحظ، لا أظنني بائسًا إلى هذا الحد، فقدماي لم تأخذني مرةً أخرى إلى تلك المقابر الخربة..

لأني لم أعـد أسـتطيع السـير يـا صديقـي، وأجلـس عـلى ذلـك الكـرسي أنتظـر ملـك المـوت، أظننـي أُصِبـتُ بلعنـة منهـم!

أو هـذا حـالي مثلهـم، وأنـت مـا عليـك سـوى الإنصـات، يمكنـك الآن أن تقاطعنـي.

***

آكلوا العيون

موسيقى مرعبةٌ تُخيم على الأجواء ذلك اليوم.. شارعٌ خاوٍ، إلا من بيتٍ وحيد في نهايته، لون حجارته قريب من لون الدم المتجلط، للأسف هذا مسكني الوحيد، لكنني أشعر اليوم بخوفٍ شديد لم أشعر به قط، تسلقت السلالم في تؤدة، كنت كمن يغرس في الوحل ويستمر في المضي، فتحت الباب كان غريبًا اليوم، كان الباب خائفًا.. صوت قهقهة ينبعث من ثغرها المصقول بالدمِ، كانت تبصق شيئًا غريبًا، إنها عين لم يبقَ منها سوى حدقة مرسومٌ عليها أشنع علامات الرعب، كأنها صدمت في أحدٍ نتيجة فعلته التي لم تتوقعها، هذا هو حال آكلي العيون، لكن هذا محرَّمٌ -أكل العيون البشرية- عند آكلي العيون!

فتحتُ الباب وتخطيتُ الحارسة التي وجدتُها للتوِّ تُخرِج عينيها لتستلذ بها..

قلت في عقلي:

- لِمَ تفعل تلك الحمقاء ذلك بنفسها.. فمخزن العيون بالطابق الثاني مليءٌ بما نشتهيه من أعين.

كان المنزل خرابًا، أحداقٌ ملقاة هنا وهناك لأنها لم تعجب إحداهن، وأخرى ممزقة بطريقةٍ رائعة كأن آكلها يصنع منها لوحة.

وأخرى طازجة تتدحرج بدمائها الدافئة نحو غرفة الطعام.. عظيمٌ هو طباخنا يضعها على سيور متصلة ببعضها حتى مكان الطعام.

ألقيتُ على من بالغرفة التحية، وتركتهم صاعدةً إلى غرفتي، لكم هي رائعة بتلك الجثث السابحة بسقفها، الدم عنوان تلك الغرفة، لا يدخلها سواي، ومن يحاول دخولها دون إذني يصاب بلعنة غرفتي سيتحول إلى بشريٍّ ويصبح وجبةً لذيذة لديَّ.

كانت جوانبها مملوءة بالتعاويذ والرسومات وكانت هناك بالجانب المقابل لبابي ساعة ومكتوب بأسفلها «**النهايةُ قريبةٌ فاحذري..**»

انتفض جسدي في أثناء قراءتي تلك الكلمات كأني ما سمعت عن النهاية من قبل.

وذهبت مسرعةً صوب مضجعي، وجلست القرفصاء بجسد متخشبٍ ثم تحولت من القرفصاء إلى التمدد، شعرت ببعضٍ من الراحة.

ثم نظرت إلى المِرآة فلم أرَ شيئًا..

- أين ذهبت ملامحي، أين ذهبت تفاصيل الغرفة، أين عيناي.

صوت صرخة انطلق مني ففقدت نتيجة ذلك صوتي، ثم نظرت إلى الأعلى وإذ بي أجد امرأة معلقة من رجليها، وتتحرك مجيئًا وذهابًا، لم أستطع أن أصرخ ثانيةً.

أردت البكاء فلم أقدر؛ فكيف البكاء لمن هو مثلي؟

ثـم نظـرت إلى المِـرآة مـرةً أخـرى فـإذ أنـا أرى، امـرأة مثـلي تمامًـا لكـنَّ عينيهـا مخفيـة خلـف أشـياء لا أعـرف كنههـا، والـدم منتـشر حـول وجههـا بطريقـةٍ لذيـذة، أوه هـذه هـي تلـك الفتـاة البشريـة التـي أكلـتُ عينيهـا اليـوم، لكـم هـي مثـيرة..

وفجـأة سـقطت مـن عـلى عينيهـا تلـك الأجـزاء ووجدتهـا ترمقنـي بنظـرةٍ مملـوءة بنـيران الغضـب..

لا هذه ليست الفتاة!! إنها.. إنها ملكتنا!!

أصحيحٌ ما أراه؟ أهي تخرج من المرآة؟

انطلقتُ مهرولةً صوب الباب لأهرب فلم ينفتح!!

نظـرت خلفـي وجدتهـا تلعـق شـيئًا مـن عـلى كفهـا لا! لم تكـن تلعـق بـل كانـت تمتـص دمـاءً مـن يدهـا، بـدأتْ بالتحـرك نحـوي كان شـعرها كألسـنة اللهـب، ثغرهـا مفتـوح بالطـولِ كان طويـلًا جـدًّا.. ولسـانها أسـود، ثـم تقدمـت منـي وهمسـت لي:

- لقـد حـان وقـت النهايـة.. أعطيتـك القـوة، فـإذا أنـتِ تسـيئين اسـتخدامها، مـا ذنـب تلـك الفتـاة التـي أكلـتِ عينيهـا، ألم يكـن بالمنـزل مـا يشـبع رغبتـك، ألم أخـبر عشـيرتك بعـدم المسـاس بالبـشر. عجيبـون أولئـك الذيـن نعطيهـم القـوة، تأخذهـم العظمـة فيشـيعون خرابًـا كـما يشـاؤون..

ثـم أخذتنـي وثنـت ظهـري ونفخـت نـارًا مـن ثغرهـا فـصرت ترابًـا.

❋❋❋

مدينة الحياة

كان السياج يفصل بينهما، أيديهما حاولت مرارًا أن تتعانق؛ والنتيجة الصادمة: لا عناق، ولا شعور بعرق اليدين الرقيقتين، الحائل يأبى أن تشعر روحهما بدقات قلوبهما المختلطة في كفيهما معًا، العرق بدأ يتصبب من الشاب، ودمع حارق يفر من مقلتيه، أما هي ففي أبهى حُلة، لكن داخلها صراعٌ ينهشها، قلبها يدمع لا عينها، عيناها تتحدث راجية:

- لا تذهب إلى هناك! لا تبتعد فلا أدري مصيري.

تلعثم كثيرًا ولم يعِ ماذا يقول في ذلك الموقف العصيب، لا مفر من الكلام، يا إلهي! لمَ نحارب بعضنا؟ أليس الأجدر أن نحارب أنفسنا الماكرة؟

كانت اللحظة مفزعة بحقٍّ!

مُجبرٌ على الوداع يا نادية، الحربُّ بنت الزانية، تريدني أن أكون ضمن المغتصبين! ما ذنبي أنا بالقرارات الحمقاء! كنت أحسب أننا سنتزوج الشهر المقبل، لكم كنت أتمنى رؤية بنتنا! قبليها كل يومٍ لأجلي، أخبريها أنني لم يكن لديَّ خيار، إنها الحرب، وما ذنبكِ أنتِ يا صوفيا، لعلَّكِ تُيتمي يا بنيتي! ولعلَّني أحيا؛ وتطاردك سيرة والدكِ النتنة في كل مكان. لمَ؟ لأنني سأغمس يديَّ في قتل أرواح لست مأمورًا بانتزاعها،

الـربُّ لم ولـن يأمـر بالخـراب. اقبضنـي قبـل دخـول أرض المعركـة يـا إلهـي! أريـد أن ألقـاك طاهـرًا، إن تخضبـت يـداي بالدمـاء كيـف سـأطلب منـك العفـو!

وعـلى حـين غـرة تسـقط قنبلـةً نوويـة، ويذهـب الجميـع إلى مدينـة الحيـاة.

***

حديث الشجرة

ثمة اجتماع في سابق الزمان لم يحضره أي من البشر، بل الموجودات فقط، وبطريقة ما سجل القلم على ورقة ما دار حينها، وتوالت الدهور، ثم تكرر ذلك الأمر مرارًا، ونتيجة لتطور الكون الذي لا يقف، لعبت التكنولوجيا في ذلك الاجتماع دورًا بارزًا، بل الأبرز على مدى العصور. اكتشف الأمر من يحسبون أنفسهم مغيري هذا العالم الجديد. وكعادتهم لم يدعوا هذا الحدث الجلل يمر دون صراع، كل أدلى بما في جعبته، فلم يعلم أناس تلك الفترة ما هم مقبلون عليه. وحري عليَّ أن أنقل لك تلك الحوارات لتعلم مدى حقارة الجنس البشري، في البدء أنا تلك الموجودات الكثيرة التي تساعدكم أنتم البشر في الاستمرار، لكن لا استمرار بعد ما سأقول، هنا بجانبي ولا أعلم أي جهة بالتحديد، القلم، وأمامه ورقة ستحوي غالبًا حقارة أناس ما كان يشغلهم إلا مصلحتهم.

أنا لا أعرف ما جرى تحديدًا لهؤلاء البشر، لكن ما رأيته هو دم وفقط، وجثث ملقاة في مشهد مروع. وتلك نهاية الحكاية.

والبداية هي عبارة عن رسائل آتية من زمن بعيد، وسأحاول دمجهم معًا لعدم التشتت، كان هذا في زمن بعيد كما قلت، وحين سمعتْ أحد الموجودات جمعًا من البشر يتحاورون عن المستقبل وعن ما يجب أن يتركوه لمساعدة أبنائهم القادمين

وسلالتهم من بعدهم، على الأرجح كان المستمع لذلك الحديث شجرة، فتواصلت مع عصفور واقف عليها وأخبرته بما سمعت، وأمرته بأن يذهب سريعًا إلى طائفته وأن يجمعهم لأمر جلل، لم يستفهم؛ فقد عرف الخطورة التي كانت تتحدث عنها؛ وتجمع الحشد، حينها كانت مجتمعة مجموعة أخرى من الحشرات الأرضية لمَّا حادثتهم تلك الشجرة. تواصلت تلك الشجرة مع بقية فصيلتها، لمَّا حل الظلام، تكلمت:

- سمعت اليوم حديثًا مهمًّا من بعض من البشر، وكانوا يتكلمون عن أمر خَطِر يجب علينا جميعًا أن نخافه أكثر منهم؛ الماء، تحدثوا عن إمكانية زواله بمرور الزمن. بل إنه يزول الآن بسرعة مذهلة، وبدرجة مفزعة؛ مهلكة.

وغمغم واحد منهم:

- ارحمهم يا إلهي، وهون عليهم الشدائد التي سيلقونها.

واستمرت الشجرة بالحديث:

- سيكون الأمر كارثيًّا أيها الجمع، وإني إخال أننا سنكون أول الهالكين، وأن فقرًا شديدًا قد يحَلُّ على كُلِّ أقطار العالم؛ ماء الينابيع على الغالب سيذهب بلا عودة، العذب والمالح منه، الأمر سيكون سريعًا ومذهلًا كما يقولون، ستضعف الأجساد وتهزل، ولن يكون ثمة شخص يقدر على مزاولة حياته، والأشنع من ذلك أن ماء الرجال نفسه قد يجف؛ وأن الماء من كل شيء قد ينتهي، سنهلك جميعًا.

انتهى هنا دور الشجرة، انتهى تمامًا، بعدما أخبرتهم بأهمية ترك رسائل للقادمين، وحينها سقطت من ذلك الفضاء الرحب، بعدما أدت رسالتها كاملة، سقطت ميتة، جراء قيام بعض الناس بقطعها.

بعد عدة قرون اكتشف مجموعة من الباحثين العرب بعض الحفريات في صحراء كانت تقول الحكايات القديمة إنها كانت مراعي خصبة، ثم عملوا على نقلها، وأنذرت بمصيبة ستحل قريبًا على كوكب الأرض. بعدما ترجموها من تلك الرقوق، تواصل كل واحد منهم مع حكومته، غضت الحكومات طرفها عن ذلك الهراء الذي قد نقلته لك بالتحديد؛ وزعموا وفرة الماء، وخصوبة الأرض، وأن مراعيهم ومراعي العالم مليئة بالحشائش والنباتات فلمَ الخوف أيها الباحثون؟ ولا داع لنخبركم بأن المخزون الإستراتيجي وفير، من أي شيء تخافون؟ رسائل مسجلة منذ آلاف القرون!

- بل عدم وجود الماء في ذلك المخزون، وعدم وصولنا إلى طريقة تصنيع الماء.

ثم خرج كل باحث خالي الوفاض، ولسوء الطالع مر كل منهم على حانة، وسمعوا جميعًا صوت قلق رواد الحانات، وكما تعوا براميل الخمر تُسكب بلا وجل، والماء يسرف دون مبالاة بالداخل.

في صبيحة ديسمبر من هذا العام بدأ منسوب المياه يقل.

تساءل الناس والحكومات:

- أين يذهب الماء؟ من يسرقنا؟

الحقيقة أن مسام الأرض قد فُتحت على مشارفها، فأخذت ترتوي دون انتهاء إلى أن قضت على المكون الرئيس للحياة.

وبعد يومين قد مرًّا، شهدت الأرض صراعًا من أجل شربة ماء؛ قامت حرب ضروس! كانت معركة شرسة بحقٍّ، العظام هُشِّمت بمطارق الجفاف، الناس تساقطوا كأوراق شجر في فصل خريفي شديد الخماسين، الماء يحارب البشرية. عانت الأرض، بارت، ذهبت إلى القبر لعلها تولد جديدًا من رَحِم النجاة.

لم يعد ثمة بشر سوى قلة متفرقة هنا وهناك! حتى في أعنف الأزمات قوةً، كان الكل مكتفيًا بذاته.

كان حلم البشر في تلك الفترة قبل أن تشرب الأرض الماء، حياة جديدة، خالية من الأنانية.

لقد مللت من هؤلاء الأغبياء، وحان وقت رحيلي لأن شخصًا ما، لم يمل من الضرب ببلطته عليَّ ليسقطني، ليصنع بعضًا من المراكب أو أي شيء مفيد من الخشب.

***

الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة

يمشي مطأطئًا رأسه، والثلج يتساقط، محاطًا بجنودِ البابا! المقصلة أُعدِّت البارحة لاستقبال رأسه الشريف، والجماهير محتشدة وتردد:

- أعدموا الموت، أعدموا الموت. أعدموا من خالف أوامر البابا! اللعنة عليك يا مهرطق.

وجروه تجاه الحبل؛ وصفق الجمع، وأقيمت الاحتفالات للتخلص من آخر المهرطقين.

وكانت آخر كلماته:

- .....

***

فرمان بابوي يصدر بإقامة حربٍ! ما السبب لا أحد يعلم غير البابا، قال إنه كان نائمًا وإذ بالرب يناديه، حرر إخوانك من الخطيئة، قم بالحرب إن لم يستجيبوا لدعوتك. أريد أن تتطهر الأرض من عبق الدنس النجس. قم بالحروب الصليبية بمباركتي ولأجلي. حلالٌ دمائهم، وأعراض نسائهم، وأموالهم لكم؛ إن أبوا.

أُعدِّت الجيوش الجرارة، والجنود الفطاحل، والجياد الرزينة، وودع الكل نفسه وأهله، ودُقت طبول الموت.

الهـواء يداعـب رمـال الصحـراء فتهـب الريـاح، والمـاء ينفـذ، والآبـار تـردم، ويصيـح القائـد:

- سيروا بمباركة يسوع، ولأجله، سينقذنا إن تحملنا.

***

جيش البابا، التقى جيش العدو.

الميمنـة في كليهـما محتشـدة بالفرسـان، والوسـط مـليء برمـاة الأسـهم، والميـسرة كالميمنـة، وفي المقدمـة الجنـود وبالخلـف قارعـي طبـول المـوت، إن كان هنـاك مـا يدعـى طبـول المـوت. المسـافة بـين الجيشـين تـكاد تكـون كبـيرة.

بدأت الأسـهم تخترق السـيقان والصدور في كلا الطرفين، والجثث تتهـاوى فاقـدة آخر نبـضٍ، وخسر الجيشـان! الكل مات بلا اسـتثناء.

***

ثـار جنـون البابـا، وأمـر قائـد الجنـد بإعـداد جيـشٍ يعـادل ثلاثـة أضعـاف الجيـش الميـت، هنـا دخـل المـوت مـن بـاب القـصر -المحـلى بقطـع المرمـر والياقـوت والذهـب- عـلى حـين غـرة مـرددًا:

- وَيحكـم! كيـف تقاتلـون باسـم الـرب، وأي ربٍ تقاتلـون باسـمه أيسـوع أم الابـن أم الـروح أيهـا البابـا! أليـس اللـه بقـادر عـلى هدايـة مـن تقـول إنـه أوحـى إليـك لتهديهـم؟ وكيـف إذن هديتهـم وأنـت قتلتهـم عـلى خطيئتهـم؟! أهـذه هـي عدالتـه؟ إنـك لأجـل عربـات مـن الدنانـير تقيـم حربًـا وتباركهـا باسـم

الـرب! يـا كاردينـالات! أخـبروني، لمـاذا يتَّمتـم الأجنـة، والرضـع، والأطفـال. ثـم كيـف يكـون المسـيح ربًّـا وهـو قـد نبـت مـن شـجرة اسـمها مريـم! أيلـد الإنسـان ربًّـا، سـاء مـا تحكمـون. إننـي أعلـن بـراءتي مـن كل الأرواح المهـدرة باسـمي، اللـه لم يأمـرني بأخـذ الـروح عبثًـا كـما تفعلـون.

ثم انصرف من ذلك المجلس، ومشى الموت في الطرق يردد:

- يـا أيهـا الرجـال لا تزرعـوا سـنابلكم في أرحـام نسـائكم، فـماذا سـيلدن لهـذا العـالم، أطفـالًا أم جريمة!

***

عقـد البابـا بعدمـا أشـاع المـوت الفـوضى في الشـوارع اجتماعـا للنظـر في أمـر ذلـك المجـرم الـذي يدعـى المـوت!

قال أحد الكاردينالات:

- لندعه، فماذا يفيد تعقله وسط المجانين؟

فعقب البابا:

- لا لا، عاقـل واحـد وَسـط ألـفٍ مـن المجانـين يسـتطيع إفاقتهـم مـن غفوتهـم!

قال كاردينال آخر:

- لنكمم فاهه بالمال!

فحدق إليه البابا بنظرة غاضبة وغمغم:

- المال لا ينفع مع هذا يا أحمق! لو كان طامعًا في مال لكان طلبه، إن هذا طامعٌ في شيء أكبر، إنه يريد زعزعة ثقة أبناء الرب بنا! بهدم أساس الكنيسة، حتى لو أعطيناه المال لن يكف عن المطالبة بالمزيد.

وعقَّب:

- هناك حلٌ واحد، نعدمه.

صاح من بالاجتماع صيحةً واحدة:

- كيف؟ وما التهمة؟

فأشار الأب بيده كي يصمتوا وتمتم:

- باسم الأب، والابن، والروح القدس، جاءني يسوع بالمنام وقال لي: إن الموت يريد أن يهلككم فأهلكوه، وبناءً على ذلك قررنا إعدام الموت. واستئناف الحرب، لتحقيق رغبة الرب في الأرض.

***

ولفظ الموت أنفاسه الأخيرة مرددًا:

- المجد لمن يقول لا وسط الظلم، المجد لمن يقول لا..

انقطعت أنفاس الموت، وتدلى رأسه، ونظر الناس ناحيته بازدراء.

البعث

1

صدى لصوت يكرر نداءات متعجبة:

- أيـن ذهبـوا؟ الطـرق والبلـدان وكل شيء متعلـق بالعمليـات البيولوجيـة أيـن رحلـوا؟ النـاس، الأزهـار، والحيوانـات، وكل شيء قبيـح أو جميـل؟

الشـمس سـاطعة، وتحنـو عـلى الأرض بأشـعتها الحانية، بالنسـبة إليـه: كانـت عـدوه الأول والأخـير؛ فكيـف تكـون النجـاة مـن عـدو منتـشر في كل موقـع؟

الـشيء الوحيـد الـذي يريحـه مـن كل هـذا العنـاء، نسـمة لطيفـة محملـة بهـواء بـه بعـض مـن الـبرودة اللطيفـة المنعشـة.

خـلال ذلـك الوقـت، كانـت نفسـه تحدثـه بـأن الـكل هلـك، لكـن عقلـه يـأبى ذلـك!

- يـا رب الرحمـة الرحمـة. الأرض كلهـا صحـراء جـرداء، الجبـال مـن علوهـا تشـعرني بالوهـن.

- لكن أين كنت من قبل؟

- اللعنـة عـلى النسـيان الـذي يـأتي في الأوقـات التـي لا نحتـاج إليـه فيهـا.

سار ولا يدري إلى أين يسير، المحيط كله هو نفسه، لا شيء يدعو إلى المفاجأة والانبهار، حل الليل وغازله القمر وأراحه من مطاردة الشمس له طيلة الصباح.

وإذ به غافٍ على أرض لا تجلب الراحة، وبين كل هذا هجمت عليه الأحلام لتروعه.

***

2

الـكل يفـر مهاجـرًا الأرض، لكـن إلى أيـن؟ الـكل يعلـم في داخلـه ولا يجـرؤ عـلى البـوح، تتداخـل الأحـلام فيصـير بمشـهد مـروع الـكل عـارٍ فيه.

- ما كل هذا الزحام؟ كيف رأيته ولم أك من قبل أبصر؟

صمـت رهيـب قـد سـمعه. أهـذا هـو ذلـك اليـوم الـذي سـمعت عنـه مـرارًا؟

حلـم آخـر، فـرار مـن هـذا المشـهد إلى مـكان فيـه العديـد مـن النـاس، المبـاني، الأزهـار، الحيوانـات.

أفاق من سباته مرددًا:

- ما كل ذلك العبث؟

❋❋❋

3

في البـدء كان الـلا شيء موجـودًا! بعـد ذلـك قـرر البـارئ أن يكـون كل شيء، أوجـد إنسـانًا، ثـم عـاش النعيـم، وبعدهـا نـزل إلى الأرض وجـرب معنـى المـوت والبعـث، كان يسـكن في الجنـة، رغـم المـسرات المحيطـة بـه في الصحـراء، لكـن مـاذا جـرى؟

***

4

عـدد مـن النـاس قـد خلقـوا وقـد ماتـوا، وبعثـوا، ثـم أصبحـت الأرض خاويـة عـلى عروشـها.

ثم بعث إنسان جديد ليعمر هذا الخراب.

مـا هـي النهايـة، وكيـف كانـت البدايـة؟ أكل شيء يـدور عليـه نفـس النامـوس؟

يـا اللـه، مـا هـذه الحـيرة، ألبـشر هـم هـم الذيـن يخلقـون؟ أم خلـق جديـد يكـون في كل مـرة؟! أسـبب الفنـاء هـو العصيـان؟ أنحـن لا شيء، أم نحـن سـبب الأشـياء؟

❋❋❋

5

بينـما يسـير في الـدروب لاقتـه أنثـى في أبهـى صـورة، حدثـت أشـياء كثـيرة غـير مفهومـة، صـوت حدثـه أن تـزوج مـن هـذه، وبعدهـا بزمـن مـات، وكـثر النسـل، وارتقـى العقـل وسـمى، وسـفكت الدمـاء لأجـل التخلـف، وهلـك الجميـع، وأُعيـدت الكـرة.

فمتى ينتهي كل هذا العبث؟

***

اللوحة

- وعدتني أن تريني تلك اللوحة المسماة مجازًا بالحياة؟

- ألم أُرِكِ إياها من قبل، اعذرني لوقاحتي، وأرجو أن تسامحني عندما تراها، آمل ألا تصدم.

- جميل، هيا بنا.

- كما شئت، كل ما أريده منك أن تجلس هنا على ذلك الكرسي، وأن تغلق عينيك متخيلًا ما سأسرد، أجل، هكذا بالظبط.

وبدأ ذلك الشيء الغريب -الذي لم أتبين كنهه للأسف- بالسرد:

في مساء أحد الأيام، عند الثانية فجرًا تحديدًا، وعلى غير المعتاد، استيقظت كل الأشياء دفعة واحدة؛ ولا أعني هنا المجاز عندما أقول كل الأشياء!

ولا داعي إلى أن أستمر بالسرد إلى ما لا نهاية؛ فلست على دراية بكل الأشياء.

لنسرد ما يهمك فقط، وما تحيط به علمًا.

الهواتف استيقظت كأنها البشر وذهبت تتجول هنا وهناك

باحثة عن أي شيء جديد تفعله، والنباتات تركت أماكنها لتنعم ببعض الهواء الطلق في مكان خالٍ من أي شائبة مضرة برئتيها، أو بجهازها التنفسي لست ضليعًا في تلك الأمور. على حين أخذت الكواكب -التي بالكاد لا تنام- في الدوران عكس طبيعتها دون أن تضر أي كائن، ومياه البحار قررت الاعتزال عن مهنتها التي تقوم بها منذ ملايين السنين، قررت الاعتزال فسلمت نفسها إلى الأرض كي تبتلعها.

والأرض هي الأخرى ملت من دورها كما السماء فتبادلا الأدوار، والحيوانات والبرمائيات إلخ، لا نعلم ما أصابها غير أنها تكاثرت بشكل جنسي مقزز؛ فكل نوع هجر نوعه وانجذب إلى الآخر وأنت تعرف الباقي.

وعلى غير المتوقع ولدت كائنات أخرى مختلفة عند الثانية والنصف، وماتت الحيوانات التي كنا نعرفها، وتبادلت العمائر والبيوت والفيلات والشواطئ.

يؤسفني أن أخبركم أيها البشر أنكم كنتم نيامًا في أثناء ذلك.

وعندما استيقظتم، ذهبتم لمجاراة حياتكم المعتادة المملة.

- توقف، أرجوك.

- إذًا كفى، أتمنى أن تعود إليهم سالمًا!

- لا، لن أعود إلى ذلك الخراب ثانية. سأبقى هنا؟

- أيـن؟ فهنـا الـلاشيء، هنـا أرواحكـم الطيبـة فقـط، وهـي أخبرتنـي أن أودِّعـك سريعًـا، فهنـاك أرواح أخـرى طيبـة، تريـد ملاقـاة أصحابهـا.

***

لعنة الاختلاف

314 ق.م يوم الثلاثاء من آخر العام.

***

- المخاطر من كل الحواشي يا بُنيتي. ما ذنبك أنكِ مختلفة عن السواد. أعتذر لكِ فأنا السبب في ذلك. منذ تزوجت أمك من العالم الأرضي وجئت بها إلى تلك الأرض وأعلم أن تلك اللحظة ستحين إن عاجلًا أم أجلًا.

- أنت السبب يا والدي لقد أجبرتني على تلك الزيجة. لِمَ لم تتركني أختار من عالمنا نحن؟!

- الكُلّ يُريد قتلك لأنكِ مختلفة. لا أدري ما تلك اللعنة الجديدة التي حلت على أرضي، إن شئت سمِّها يا عقلي بلعنة التماثل، لعنة الموت لكل مختلف.

مشى الرجل يسأل نفسه:

- كيف سأنقذ بُنيتي؟! غدًا موعد حلول اللعنة.

لم يصل إلى إجابة.

***

314 ق.م يوم الأربعاء من آخر العام.

***

محكمة اللعنة أو سمها محكمة حقوق الإنسان.

بنيتي واقفةٌ هناك بجانب الموت أتراها؟!

القاضي:

- اليوم سنقوم بأول عملية إعدام بسبب الاختلاف. هل يريد أحد الاعتراض على القانون الجديد؟

الكل صامت لا أحد يريد أن يتكلم -الصمت أحيانًا جريمة لها عواقب لا ندركها الآن- وعلى حين غرة يدخل الملك من باب القاعة ويأمر القاضي بأن يوقف القانون الجديد!

فهناك بالقصر وُلِدَ طفلٌ مختلفٌ عن السواد.

***

إنشيطان

1

البحثُ عن الشيطان

❋❋❋

أصوات هروب الأرواح من الأجساد أسكتت الألسنة عن لهوها، وأدارت العيون في محاجرها بجنون، وأصبحت القلوب تدقُّ خوفًا، أجسادٌ تتهاوى كشهبٍ متلاحقة في ليلة كالحة، وأخرى تنتظر دورها، صراخٌ مزعج مرعب بدا كطرقات روح مستنجدة على قلب عبد عاصٍ، في تلك المنطقة المجهولة لدى أكثر الناس علمًا بوجودها لكنه ينساها أو لنقل يتناساها: الروح!

لم تكُ الأصوات المرعبة سوى جزء من آلاف الأجزاء الموجودة بداخله، في ذات مساء، وقف ناظرًا إلى المرآة ممتعًا نظره بتقاسيمه، تصوَّر نفسه يقع على جسد امرأة هزيل، ذات حسن خلاب، طرد الفكرة من خاطره، ووضع ما أمره به الرجل الذي لم يرَ منه حتى وجهه؛ سمعه فقط، ونزل من منزله وذهب إليه.

في الصباح الذي تلا ذلك، فاق من سباته ولكن روحه لم

تفـق مـن أثـر العطـر، جسـدٌ يسـير مـن دون روح، كان أقـرب إلى الدابـة المنسـاقة دون عقـل، نـزل الطريـق كالمجاذيـب وبعـض مـن رآه احتسـبه شـحاذًا، ولكـن لم يكـن هـذا أو ذاك، كان أهـواء تمـشي عـلى رجلـين والأجـدر أن تكـون أربعـة، لكـن لا يهـم ذلـك الآن، المقابـر كانـت وجهتـهُ، حـلَّ المسـاء عندمـا وصـل، تسـلل إلى أحـد الأحـواش ببـطء سـلحفاة. دخـل فيـه ورقـد كأنـه يسـكن في بيتـه.

سـمع صـوت فحيـح أفعـى، فشـعر أن أوصالـه قـد لدغـت وأخـذت ترتجـف، تكلمـت الأفعـى قائلـة:

- من جاء بكَ هنا أيها المجنون!

هالتـه ضحكتهـا الشـبيهة بصرخـات بـشر يتعذبون. لكنـه لم يفق مـن نومـه ليلحـظ أن مـا كان قـد يحلـم بـه في قـبره هـو الواقـع.

- روحـك سـجنت هنـاك يـا نكـرة، مـا أنـت الآن سـوى جيفـة تمـشي عـلى الأرض.

راح رأسه يلتفت مفزوعا مما تسمع.

- أي هناك! أيتها الأفعى النتنة!

بتلقائيـة بخـت سـمها عـلى أطرافـه كافـة وتجهـزت للرحيـل وودعتـه مغمغمـة:

- ابحـث عنهـا أيهـا الأحمـق، سـأدلك عليهـا بـشيء وعليـك البحـث «هدوقـت هحـور كـرت نـم مـدن»

تسلل سنا الشمس فأحيت الأرض ومعها حيي الجسد، قام وسار إلى بيته بنفس الهيئة التي جاء بها من جديد كأنه لم يبت بجانب أرواح معلقة.

موسيقا الخلود تعزف كل صباح، كل ثانية، إلى أن يحين الغروب فتفاجأ الشمس بالنوم، ويا عجبًا للبشر الذين يرَوْن ذلك ولا يضعون أنفسهم محل التشبيه.

كان من هؤلاء؛ فهناك فئة ثانية ترتعد كلما ذهبت الشمس إلى مغربها.

دعك من هؤلاء الناس فهم في نظره حمقى، ولتنظر إلى جسده الهزيل، أين نبضه؟ لا يدري، هو لم يسأل نفسه ذلك لعلمك، ولم يدرِ بتلك السخافات من الأساس، كل همه أن يسير بجسده إلى أن يصل إلى مثواه الأخير.

ثلاثون يومًا مروا وكل يومٍ هو في حوشٍ مختلف، وفي الليلة الأولى من الثلاثين الثانية، تجسد له من كان يبحث عنه طوال ذلك الطريق، الشيطان.

***

2

البحث عن الإنسان

❋❋❋

لغبائه لم يفهم أن ما قالته الأفعى كان تحذيرا لنجاته:

- ندم من ترك روحه تقوده.

❋❋❋

قبل ذلك بثلاثين عامًا

اجتماعٌ تجمع فيه أبالسة العالم السفلي، كان كل همهم أن يجمعوا أرواح العالم في جسدٍ واحد، أطيبها وأشرها، الأمر بدا لوهلة مستحيل؛ فمن ذا الذي سيستطيع أن يحمل جسده هذا الكم من الأرواح؟!

تواصلوا مع السحرة وأخبروهم بالأمر كانت رسالة مفزعة تلك التي بعثوها، كلما يقرأ أحد السحرة فحواها يكاد عقله يجن!

«يا أيها الخادم! ابحث عن جسدٍ يستطع تحمل كل الأرواح، دون استثناء، لقد حان وقت انتهاء هؤلاء الحثالة المدعوين مجازًا بالبشر، وما لهم أية صلة بذلك التشريف.»

طال الأمد، وتجدد السحرة وتكررت الرسائل، إلى أن ولد بطلنا وصار الآن في الثلاثين!

منـذ الحركـة الأولى وتحيطـه الشـياطين، منـذ الصرخـة الأولى راحـت تربـت عليـه، أماتـت أبويـه في العـاشرة، وكل أقاربـه في الثانيـة عـشر، كان ذلـك قرابـة القـرن الأربعـين قبـل الميـلاد.

الفتـى كان فاسـقًا، لم يكـن لـه هـم سـوى المجـون، شـب في بيـت سـاحر، كـم المـرات التـي قـرأ فيهـا الرسـالة تجـاوز الألـف، كانـت كل عـام وخاصـة في الخريـف تفتـح لـه أفاقًـا جديـدة في روحـه، تنقـل بـين العالمـين بسـهولة، في البـدء، عـانى حـرارة النـيران، بعـد ذلـك اعتادهـا لمـا نـال مـن القـوة، كان الفتـى حاذقًـا في كل شيء تعلمـه مـن الأبالسـة، تركـوا الأمـور تسـير دون أي إرشـاد، فقـد كان آخـر مـا وصلـوا إليـه أن يذهـب أحدهـم ليضاجـع أحـد النسـاء، وقـد كان، وولـد مـن نسـل الشـياطين: إنشـيطان!

عـاش بـين النـاس كبـشر وكشـيطان، كانـت الشـياطين تهابـه، وكانـت النـاس تمقتـه كالبـق.

في ذات خريـف، وفي أحـد زيارتـه إلى العـالم الحقـير، عـالم الأبالسـة، دعـوه إلى أكـبر اجتـماعٍ يعقـد هنـاك، وهنـاك فقـط، علـم حقيقتـه، وعلـم كنـه قوتـه، أخـبره مـن قتـل الـذي كان يحسـب أنهـما أبـواه، بسـبب مـا فعلـوه، وكلـما سـمع منـه تـزداد انكماشـة حاجبيـه الكثـين.

وفي الخريـف التـالي وفي الاجتـماع الثـاني الخـاص بـه وحـده، أخـبروه بأنـه يجـب أن يتـزوج، فهـو في حاجـة إلى ابـن، كي يسـاعده فيـما هـو مقبـل عليـه، تركـوا لـه الاختيـار شريطـة أن يختـار ابنـة

أحـد السـحرة، وقـد كان وأنجـب ولـدًا كانـت ملامحـه النصـف شـيطانية أبـين عليـه مـن النصـف إنسـية وأخـذ ينمـو، وعلمـوه كل شيء، الآن صـار الطفـل شـابًا في الثلاثـين، والأب شـيخًا في السـتين، أخـذ يذهـب بـدلاً مـن أبيـه، وفي خريفـه الخامـس بعـد الثلاثـين، أخـبروه أن يقتـل أبـاه وإلا قتلـوه أمامـه وقتلـوا أمـه. لم يبـد أي اهتـمام، لم يعـد يفهـم أي شيء، وفي ليلـة مـن ليـالي الشـتاء أحـضر أفعـى وسـلب منهـا السـم ووضعـه في الطعـام وقدمـه لأبويـه، الولـد كان أكـثر جحـودًا مـن أبيـه، وفي الصبـاح سـحب قـوة أبيـه إلى قوتـه، ودفنهـما في الحـوش، مـن غريـب المصادفـات أن الحـوش الـذي شـيعهما فيـه كان هـو ذات الحـوش الـذي نـام فيـه والـده وحدثتـه الأفعـى.

- ما صوت الفحيح هذا!

لسعات السم كانت تمزقه، حان وقت حقيقته.

تحدثـت الأفعـى بصـوت غاضـب، بريـق عينيهـا تـلألأ، كلامهـا كان كالسـم:

- لم تهتـم بي يـا حقـير عندمـا جئـت إليَّ هنـا، لم تفهـم أننـي روحـك، حقيقـة كنـت جاهـلًا، فالسـاحر لم يخـبرك بدايـةً أننـي أسـجن وأتحـول إلى هيئتـي تلـك، بسـببك أنـت ستسـجن أرواح العـالم في جسـد ابنـك، لكـن مـا نفـع ذلـك الآن، وأنـت هامـدٌ لا تقـدر عـلى الحـراك.

- يا إلهي الرحمة الرحمة.

الأفعى بسخرية فظة:

- أي إلــه يــا أحمــق؟! الشــيطان صــار إلهــك! وهــو عبــدٌ، أوتقــدر مــا أنــت فيــه؟

لقد حذرتك من قبل:

- ندم من ترك روحه تقوده.

***

قسطنطين

روتين

القهوة مع السيجارة في الصباح،

الطريق إلى العمل،

الطريق إلى البيت،

الطريق إلى السرير،

ومن ثمَّ..

القهوة مع السيجارة في الصباح،

إنه حيٌّ تمامًا،

المسه ولا تخف

فالموتى لا يخيفون.

رياض الصالح حسين

1

من يوميات قسطنطين

❋❋❋

الـورود مـلأت الفـراغ بسـحر رائحتهـا، وأرسـلت إلى أنـف «**ليـزا**» المحـدب نسـمات سـاعدت عقلهـا في الانتعـاش، تحركـت في مكتبهـا بحرية لبساطة أثاثه ورحابته، قلبت في الأوراق التي في يديها باهتمام.

حتـى وصلـت إلى الصفحـة الرابعـة والثلاثـين، قـرأت بصـوت مرتفـع رأس الصفحـة. ثـم عـادت إلى كرسـيها لتنهـي ذلـك الجـزء ببـطء، وتـدون ملاحظتهـا عـلى مـا قـرأت!

وبدأت تقرأ:

«تأمل *1*»

«وجودنـا في هـذه الحيـاة ليـس مرتبطًـا برغبتنـا في الخـروج إليهـا، قـد يذنـب والـد أحـد منـا بـأن يرمـي بـذوره -مـن دون أي اسـتعداد للاعتنـاء بنـا- داخـل حديقـة أم شـخص منـا. حتـى لـو اعتنـى؛ فمصيرنـا رُبـط بالرغبـة التـي لا نسـتمتع بهـا دومًـا «الحريـة». ثـم النهايـة الأبديـة التـي فرضـت علينـا منـذ بـدأ الخلـق الأول «الانقـراض».»

أخرجـت القلـم الرصـاص، لتلخـص مـا قـرأت في أجندتهـا الخـضراء التـي لا تفارقهـا أبـدًا، وكتبـت في رأس الصفحـة:

«مدخل»

تسير حياة «**أنطون قسطنطين**» في حلقات متكررة.

الاستيقاظ في السادسة، تجهيز الفطور، شرب السجائر، فطوره، ذهابه إلى الجامعة، حضور جلسة الطبيبة النفسية التي لا يرى منها أي فائدة سوى التسلية، أنا بالطبع، ثم سماع الموسيقى التي تجعل لوجوده معنى، والصلاة للرب فيما ندر، ثم النوم!

***

لا أحد ينظر إلى أحد

الكل ينظرون إلى بعضهم

عدنان الصائغ

2

البداية

❋❋❋

في أحد أيام الاثنين، خرج من جامعة هارفارد مسرعًا إلى عربته المرسيدس، ما إن وصل إلى كرسي القيادة حتى جفف عرقه بمنديله الحريري، فتح المذياع فإذ به يذيع مقطوعة «**ذكريات الماضي**» لـ«**شوبان**»، فارتسمت على وجهه ابتسامة ثم ضحكة بسيطة، وكاد يجهش بالبكاء، لكنه انطلق وأخذ يدندن مع الموسيقا!

في منتصف الطريق، أخذ الهاتف يترجرج في شدة، فتوقف وأوصل السماعة، ووقتما رد سمع صوتًا فيه شيء من الغلظة:

- «**قسطنطين**»، **يا صديقي، كيف حالك؟**

- **بسوء طالما سمعت صوتك يا «سقراط» زمانك.**

ضحك بسعادة صادقة.

- **لا يزال حسُّ الدُّعابة يسري دومًا في عروقك يا رجل، لكن وددت إخبارك بأن تحضر هذا المساء لنتعشىَ معًا.**

«**قسطنطين**» في تأفف مكتوم:

- **لا رغبة لديّ في الجلوس معك لسماع ثرثرتك التي لا**

رجـاء منهـا، سـأهاتفك قبـل أن أنـام وحينهـا أوجـع رأسي كـما شـئت بتأملاتـك يـا «إيفـان».

- (يضحك) لا ضير طالما سنتحدث.

يصمتـان فيبـدأ «**قسـطنطين**» الـكلام رغبـةً منـه في إنهـاء ذلـك الملـل:

- في الثانية عشر، سلامًا

***

3

الطبيبة من جديد

***

منعـزل عـن النـاس، رغـم أنـه لا يريـد ذلـك، هـروب مـن قبـول الدعـوات حتـى لـو كانـت مـن أقـرب أصدقائـه، روتـين ممـل، لعـل ذلـك لسـيطرة والـده عليـه في صغـره، فانحبـس في تلـك الفـترة، معزوفـة «**شـوبان**» تـكاد تجعلـه يبـكي، لجلبهـا ذكريـات أليمـة، والـده كان مسـيطرًا كل السـيطرة عـلى كل الأمـور تقريبًـا، وحـين سـافر للعمـل، عانـت أمـه في تربيتـه والإنفـاق عليـه، كان ذلـك بعدمـا قـرر والـده أن يـدرس الأسـاطير لولعـه بالخيـال، عمـره تجـاوز الأربعـين، ومـا زال يقـوم بنفـس الأشـياء.

تستكمل القراءة...

***

لا تخافـوا شـيئًا مطلقًـا، مـا دام لا يوجـد شيء أشـقى وأتعـس مـن حياتكـم التـي تعيشـونها طـوال العمـر.

«مكسيم غوركي»

4

مناجاة

❋❋❋

في اليـوم التـالي قـام بتكاسـل وهنـدم ذاتـه، وردد كعادتـه كل صبيحـة أحـد:

- اللعنـة عـلى تلـك الأسـاطير التـي ضيعـت شـبابي في دراسـتها، مـاذا اسـتفدت مـن ذلـك كلـه، لمَ لم أقـرأ الشـعر مـن قبـل؟!

أأحمـدك يـا أبانـا عـلى أني لم أفعـل حتـى لا يـزداد شـعوري بالوحـدة، أم أرجـوك أن أحـب.

أنت تعلم أني لا يستهويني شيءٌ في فضائك الرحب ذلك.

كيـف يسـع الكـون وحـدتي!! الوحـدة كـما تعلـم حجمهـا أكـبر مـن حجـم سـماواتك وأراضينـك، فكيـف؟

أنـا لا أعلـم كيـف ناجيتـك؛ لكـن عـلى الأرجـح، لا لا، مـن المؤكـد، أني لم أجـد صديقًـا يتحمـل تعاسـتي؛ فأفضيـت بهـا إليـك، لمَ لا يمكننـا أن نبـوح بآلامنـا إلا إلى السـماء؟!

أمـن الممكـن أن يكـون هنـاك شيء سـعته أكـبر مـن سـعة السـماء؟!

أسرتي؟

- لم يبق سواي.

أصدقاء؟

- لا يفهمونني.

حبيبة؟

- ليس عندي.

لا أجد ما أقوله تجاه رحمتك بي، أوتكفي صلاتي لتبجيلك؟

أشكرك على أنك وهبتنا النوم، وإن كانت أرواحنا لا تنام.

ثم ذهب إلى أحد المطاعم الفاخرة، فأسرع النادل نحوه فرحًا؛ لكرمه!

- الفطور ذاته يا سيدي؟

- أجل.

وبينما يزدرد فطوره، لاحظ «**إيفان**» يتجه نحوه، فصدم.

ألم أحدثه بالأمس، يا لغبائي! ما بال أولئك البشر لا يكفون عن البحث عنا كأننا أطفالهم، سينفجر رأسي مما سيحدثني به، لا، سأفجر رأسه! لكن كيف؟

❋❋❋

أعرف الحياة

من قفاها

لكثرة ما أدارتْ لي ظهرها

عدنان الصائغ

5

صراعٌ

❋❋❋

جلس الرجل، وطلب له «**أنطون**» إفطارًا، واعتذر له عن نسيانه إياه.

- لا يهم، نحن الآن معًا (مشوحًا بيده) فلتفض إليَّ، وأفضي إليك!

- أين ذهبت أيامي يا صديقي، حققت أحلام والدي، مات، وتركني أتألم!

بينما يرتشف **إيفان** الشاي قال:

- دعك مما جرى، وقل لي، ما هذه الرتابة التي تعيش بها يا «أنطون»؟! ألم تمل من عاداتك المملة؟

- ولكن لو مللتها، فأي الأشياء سأفعل؟

- لِمَ لا تجرب السفر؟

- مع مَنْ سأسافر؟ أنا وحيد! وأنت تعلم أن من يسافر بمفرده كمن يحكم عليه بالسجن في زنزانة معزولة بثلوج سيبيريا، أو هذا هو معنى السفر بمفردي على الأقل...

- لو كان بإمكاني أن آخذ عطلة للسفر معك لفعلت، لكن كما تعلم جشع المديرين... دعك من السفر، أما تفكر في ممارسة الحب مع فتاةٍ حسناء، أو أن تفعل أي فعلة حمقاء؟

- لا أفكر في أي شيء.

- حسنًا، أنت وحيد، وتخدع نفسك بقولك غدًا سأصير اجتماعيًّا. الوحدة موت، أرأيت ميتًا يبعث من قبل؟ أتريد الحل؟ استمتع بها بصدق.

- لكن كيف؟

- أنت في عدم وصال مع البشر، كن في وصال مع غير البشر إذًا! ألمك لن يؤلم غيرك، لست في حاجة إلى الناس، إن كنت غير اجتماعي.

- نعم، أنا لا أحتاج إلى الناس، ولكن أحتاج إلى أن أشعر بنفسي، تعلم أنني أحبهم، ولكني لا أعرف طريقة التواصل معهم، أعلم أنِّي وحيد. ولا أدري كيف حادثتك! سأحكي لك أمرًا مضحكًا، كان هناك فتًى، كل مساء، تسبه أذناه دون علمه، أما عقله فقد ملَّ كامرأة تضاجع زوجها روتينيًّا، فلا هي انتشت، ولا هو سكر، كان أحمقا يُسمعها ذات الموسيقا كل ليلة، اغتصب سمعه بطريقة بشعة، وللأسف عقله لم يعد ينتشي من كثرة التكرار. أوعرفت هذا الفتى؟

في حزن:

- غالبًا نعم، تعال يا صديقي لنذهب إلى صديقة لي ستساعدك...

***

كم عينًا فقأت

أيها المدفعيُّ؟

لتضيء على كتفيكَ كلُّ هذه النجوم

عدنان الصائغ

6

استغلال

❋❋❋

يوميات قسطنطين مرة أخرى:

«تأمل *2*»

تخيَّل معي رجاءً ولا تضع حدًّا لعقلك أرجوك!

تخيل صوتًا هامسًا، يقترب منك ويهمس في أذنك بهدوء:

- لا يشعر بي أحدٌ ولا بأمثالي، ولكي لا أزيد حيرتك التي بدأت تتشكل على تقاسيم وجهك كما هو جليٌّ لي، أنا الأرض، لا تندهش أني أتحدث -ازدادت حدة الصوت- كل من حولك يتحدث ويتألم لكنه لا يستطيع أن يبوح، لأنه لو فعل لسمعتم نواحًا، وما ألمنا إلا بسببكم، هل فكر أحدكم في مرة أن يحترمنا، كل ما تفعلونه لي على سبيل المثال هو في الأصل لكم، أنا لا أذكر أن عددًا كبيرًا منكم قد رعاني بحب، كلكم تهتمون بذواتكم، واهتمامكم بمن هم مثلي هو في الأصل اهتمام المخادع، لكم تمنيت أن تكون لي يد واحدة كي أستطيع صفعكم!!

نادت بصوت غاضب:

- مورفيوس(*)، رجاءً انقله إلى من عنده شكوى من أصدقائي.

(*) إله الأحلام عند الإغريق

انس الأرض الآن، وتصوَّر أننا في ساحة حرب!

واستمع إلى أحد الأسلحة وهي تتألم وتشتكي.

هبه يقول:

- ما شعور الطلقة حينما تنطلق صارخةً من فوهتي، وما شعور البارود وقتما يحترق بداخلي، أهي تتألم لأنها أصابت جسد أخيك في البشرية يا حاملي، أم هي عبدة لسيدها وتفرح بما يفعله كما تفعل؟

وتستمر في الشكوى:

- بينما أنتم في أوقات السلم، لا أحد منكم يشعر بي، أعلم أنكم تعتنون بي، لكن أعنايتكم خالصة لي أم لمطامعكم، لا يهم.

وينتحب السلاح ويستمر في الكلام:

- أنا قاتل أخيك، ومنجيك منه إذا ما بادر بقتلك!

أخبرني، ماذا استفدتم مني؟

إنني أتألم منكم، لست أدري كيف تحملون بداخلكم كل هذا الشرِّ، أعلم أنكم مجبرون، لكنها فكرة حمقاء، إنها أشبه بالموت والحياة، إنكم حقيرون جدًّا وستفنون أنفسكم بأيديكم وبسلبيتكم.

***

7

النهاية

❋❋❋

بعدما سمعت التسجيل الذي سجله «**إيفان**»، وتنفيذه لما طلبته منه، صار علاجه أمرًا سهلًا!

بينما هي جالسة قبالة المكتب وأجندتها الزرقاء تنتظر ملاحظتها الأخيرة، شرعت ترتشف من عصير البرتقال بتلذذ، ثم بدأت تكتب:

إن وصال قسطنطين مع غير البشريين، جعله يرى الحقيقة دون زيف، أرى أنه لديه حق في تأملاته وسبب لعزلته، فالكل لا يريد إلا مصلحته، كانت لديه محاولة صداقة واحدة ناجحة، ولولاها لوصل إلى مرحلة كره نفسه، إن الإنسان لو لم يكره بعض الأشياء، لما كان في وصال مع البعض الآخر.

ولولا قدوم «**إيفان**» وعرضه عليَّ مشكلة قسطنطين لما استطعنا أن نجعله يشعر بنفسه..

الأصدقاء الحق هم من يشعرون بنا من خلال قلوبهم، هم من يتحمَّلون أسلوبنا الذي قد ينفر الجميع إلا هم.

❋❋❋

التاريخ

تناجت روح الأرض مع ربها في يوم ما. ولعل هذا كان في نهايات ديسمبر.

- ربي إنك تعلم كمَّ ما أبصرت، وَكمَّ الدم المراق الذي ارتويته ولا أعلم سببه، وَعدد الموتى الذين أحتضنهم كل عام، ويسير فوقي كثير من البائسين الذين يرهقونني بما يحملونه من أحزان وآلام ووجدان مشتعل بنار أشياء عدة حينًا، وألم النار ذاتها أحايين ثانية. وإنني أتحمل كل ذلك ولا أئن ولا أشكو، كان هناك شيء يُدخِل عليَّ السرور وينسيني كل تلك الآلام، إنه الفن يا خالقي! وكيف لا يريحني وأنت البديع المبدع!

لمَ يسير كل هؤلاء عليَّ؟! إنني أكاد أميل لثقلهم. أعلم أنك أعطيتني قوة تحملهم! ولكنني خائفة أن أخذلك! أولا يشعرون بي؟! إنني لا أذكر مرة أن أحدهم جلس وحدثني! كيف ينكرونني بتلك القسوة. أولست أمنحهم كل ما يبتغونه ليبدعوا، لولاي ما أكلوا، وما شربوا! كيف كانوا يُقيمون ثروتهم التي يتباهون بها لولا تحملي؟!

من كان سيتشمم الورود والياسمين إن لم أوجد!

إن أكثر ما يفزعني أنني قطعة واحدة، وما عليَّ مختلفون من كل النواحي!

أوليس الشيطان الذي جاءوا منه واحد، إنك تعلم أنني لا أقصد لون أجسادهم بل حالتهم الدنيوية! لمَ يتصارعون ويغرقونني بالدم!

العنف، الصراعات، الاختلاف، القتال، الدماء، الدمار، الهدم، والموت. أين ذهبوا؟ أوحلَّ السلام إنني أشعر بالهدوء؟!

لا لا إنني أهذي! إنني أسمع صوت الحرب! شكرًا لك ربي على سماحك لي بمناجاتك، سأنصرف وأجيء في المرة القادمة لأعلمك بما علمت يا عليم.

***

في صبيحة اليوم الذي ناجت فيه الأرض اللَّه، خيم السكون على كل الاتجاهات، أشعة الشمس تنفذ في الأرض فتُحييها؛ فأخذت تجهز روحها كي تستقبل أحداث اليوم قائلة:

- يا لبؤسي أهذه وظيفتي! أكل يوم أسجل الأحداث. ما فائدة ذلك. هم ميتون، وأنا باقية. أوينتهي ضوء ذلك الشعاع يومًا!

لِمَ لا أنام! ما هذا الفراغ فلأتابع عملي، ماذا يعمل بني الشيطان اليوم؟

يستعد جمعًا من الجن والعفاريت ذوي نيات طيبة لإقامة بناء. أنا أعلم أنهم طيبون فقد بصرت أغلبهم يرفق بزوجه ويلاعب أولاده كل مساء ومنهم من يصلي ومن يذهب إلى

القـداس، كانـوا نبتـة طيبـة قطفـت مـن تـراب أرضي.

وبالفعـل أقامـوا ركائـزه، وأهـم أعمدتـه وسـموها: فهـذا عمـود الصـبر عـلى طـرف اليمـين، وذاك عمـود الثقافـة بجوار عمـود الأمل، وهنـاك بالركـن الأيـسر عمـود الإيمـان، وبالمنتصـف عمـود الخـير.

كان ذلـك المعبـد هو معبد العلم، كان منارةً وسـط ظلمة العقول المنتـشرة في أربـاع الدنيـا! ولكـن أنى لـه أن يكتمـل وهنـاك عصابات تسـمى: العنـف، الخرافـات، النزعـة العقليـة، الجهـل، والـشر؟

هجمـت تلـك العصابـات بـكل مـا تمتلكـه مـن قـوة، وأخـذت تهـدم الأعمـدة تباعًـا، فأصاب اليـأس نفوس الطيبـين، وشرع كبيرهم الـشر، يأمرهـم بـأن يذبحـوا العـمال، ومنهـم مـن راح واغتصـب النسـاء، وأخـذ الجهـل يحـرق الكتـب، والنزعـة العقليـة تخـرب العقـول الباقيـة بتشـددها، والخرافـات أنسـت النـاس الإيمـان.

وسـقط معبـد العلـم، وسـقط معـه العـالم، ونشـبت حـرب بـين العصابـات بعدمـا أصبـح العـالم كلـه عصابـات، وانتهـوا قاطبـةً .

اسـتدعت روح الأرض روح الإنسـانية التـي انتهـت وأخذتـا تبكيـان مصيرهـما، وشرعتـا تناجيـان ربهـما كل روح بمفردهـا.

روح الأرض:

- لم يبـق سـواي يـا خالـق! لمَ كل هـذا الخـراب؟ كانـت الحـرب عنيفة .

روح الإنسانية:

- ربي لا ذنب لي، إنما هم الخبيثون، ما كنت سوى طوع أمرهم، لم آمرهم بل هم من أمروني بكل الذي حدث.

ونزل ملك الموت وقبض من الأرض قبضات تراب من كل حدب، وخلق آدم، وقتل الأخ أخاه، واستمرت الأيام، وتكررت المآسي مرات ومرات ولكن لم ينتهِ بنو آدم بعد. حقًّا آفة البشر النسيان. أما أنا فلا أنسى، ألم تعرفني بعد؟! إنني التاريخ.

❋❋❋

مارلنسكي

يستأنفُ «**مارلنسكي**» ذلك الشاب الساحر للفتيات صاحب العينين اللتين تشبهان لون السماء بعد ساعاتٍ من التسكعِ وشرب الخمر والمقامرةِ طريق عودته إلى منزلهِ الواقع بالعاصمة موسكو وسط الأغلبية السلافية.

جلده كاد ينسلخ عن جسده من الجو القارس لولا ارتداؤه السترة المصنوعة خصوصًا لتلائم جو روسيا.

السماءُ تُثلج بلا هَوَادَة، تسير بجانبه «**تاتيانا**» التي بلغت من سني شتائها بضعًا وعشرين عامًا، ينظر إلى عينيها البُنِيَتين بكل حَيونة، ويمرر يده بشدة بين خُصلِ شعرها الأشقر الناعم. يدخل منزله ويدفعها بقوةٍ إلى الداخل، يرمي جسده فوقها بكلِ عنفٍ حاولت أن تقاومه لتفر منه ولكنها لم تستطع سوى أن تبكي وأن تتألم.

لامت نفسها على حماقتها بتوجيه سؤال إلى ذاتها:

- كيف لذلك الطفل البريء الذي عرفته منذ بضع ساعاتٍ أن يتحول ويمنتهى السرعة إلى حيوان؟!

استطاعت أن تفر بعد سطوع الشمس بعدما خلد إلى النوم. بعد أن أخذ منها أنفس ما تملك أخذ منها ما يسمى المرأة.

يستيقظ «**مارلنسكي**» بعد وقت الظهيرة بقليلٍ غير مبالٍ بما فعله بليلة أمس، يذهب مسرعًا مشتاقًا إلى كأسٍ من النبيذ الإيطالي الفاخر المعتق منذ خمسة عقود كان قد اشتراه من متجرٍ شهير بروسيا لا يتذكر منه الآن سوى شهرته.

أعد نفسه بعد أن شرب جرعته المعتادة ليذهب إلى صديقه «**أوجين فسكي**»، يذهب له ليقضيا معًا أمتع أوقاتهم، أوجين صديقه منذ صغرهِ يعرف عنه كل أسراره تقريبًا، كلما يراه يحزن عليه كثيرًا، يعرف أن صديقه بهِ كم من الحزن الدائم جعله منحرفًا لا يستطيع العدول عن انحرافه، منذ أن صادقه وهو يرى والديه حرماه من كل شيء حتى معنى الطفولة حرماه منها.

يشفق كثيرًا عليه، لذلك يحاول أن يرفه عنه ويقضي معه أمتع الأوقات.

- «مارلنسكي»! عُدَّ ذاتك غدًا كي تأتي معي إلى صديقتي مادونا.

- لا أستطيع! أنت تعرف أنني أضعف أمام النساء ولا أستطيع مقاومه ذاتي وقد أسبب لك الإحراج.

- لا تقلق يا «مارلنسكي»! «مادونا» تعيش وسط عائلتها لا بدَّ أن تأتي معي غدًا.

- حسنًا.

ذهب «**مارلنسكي**» إلى «**أوجين**» ليذهبا إلى «**مادونا**».

تلك المرأة الثلاثينية رشيقة القوام، خضراء العيون، شعرها ناعم يشبه النيران الحمراء، ثغرها وأنفها صغيران يدلان على براءتها.

مرت الزيارة دون حدوث أي مشاكل.

منذ أن رأى «**مارلنسكي**» «**مادونا**» وحسن معاملتها وسجيتها الطيبة، شَعَرَ لوهلة بظُلمه وجبروته شَعَرَ بعذاب من أبكي وأدمى وأحرق قلوبهن.

- كم كنت قاسيًا!

ولكن قلبه أبى حزنه وأصر على جبروته وعلى إكمال طريقه الذي يجلب له اللذة.

ذهب يوم الخميس إلى صديقه ليدعوه هو و«**مادونا**» ليقضيا معه ليلة العشاء بيوم الجمعة فوافق «**أوجين**» على الفور.

وبالفعل ذهب «**أوجين**» و«**مادونا**» تلبيةً لدعوة «**مارلنسكي**» وانتهيا من عشائهما ثم ذهب «**مارلنسكي**» ليحضر شرابًا من النبيذ الإيطالي الفاخر ليقدمه.

التوتر يملأه، الخوف يحيط به، القلق يدفعه لمعاودة تفكيره، **هل يا تُرى سيسامحني «أوجين»؟**

هل أفعل مع «مادونا» ما فعلته مع الأخريات؟

لقد أحببتها منذ أن رأيتها للوهلة الأولى.

لِمَ يا صديقي أخذتني معك؟ ليتك لم تأخذني!

ثم وضع قطرات من المخدر في كأس صديقه ليفعل ما اعتاده، حتى إحساس الحب أبى قلبه أن يعترف به، وحدث ما توقعه من المخدر.

قام «**مارلنسكي**» بعد أن فقد «**أوجين**» وعيه، ليفعل ما أمره به قلبه الخبيث!

ولكن يا لسوء حظه؟!

من قال إن النساء لا يمتلكن سوى أسلحة الإغراء والشهوة! غبيٌ من يقل ذلك.

إن النساء يمتلكن أسلحةً لن يصل إليها أحد.

يمتلكن سلاح العين وما أدراك ما سلاح العين!

منذ أن حكى «**أوجين فسكي**» لـ«**مادونا**» قصة صديقه وشرح لها ما عاناه، علمت ما يجب عليها فعله لذلك المسكين.

فأخبرت «**أوجين**» أن يحضر «**مارلنسكي**» لمنزلها وأن يقبل دعوته إذا دعاهما، وبالفعل حدث ما خططت له.

وبعد أن فقد «**أوجين**» وعيه حان دورها لتُفيق ذلك القلب الذي صار لا يهتم بعقل صاحبه.

بعد أن فقد «**أوجين**» وعيه وقام «**مارلنسكي**» ليقع فوقها، نظرت إليه بنظرةٍ يملأها حنان الأم وشفقة الأب ومشاعر الطفولة، لم تظهر له أنها خائفة.

وقف مكانه وسارت «**مادونا**» تجاهه وأجلسته كالطفل.

وقالت له في تؤدة:

- أعلم ما عانيته منذ صغرك، قلبك لم يعد يستجيب لِما تأمره به، يجب عليك أن تنظر للعالم بنظرة طفلٍ سترى حتمًا عيون يملأها الحنان الذي حرمت منه، وسيزول عن قلبك الخبث، فقط عش كالطفل، فالأطفال لا يفكرون بالجنس، يفكرون فقط في اللعب والعودة آخر النهارِ ليأخذون جرعةً من الحنان ثم ينامون.

- ومن سيعطيني تلك الجرعة من الحنان الآن؟ لا أحد!

- من قال ذلك؟ فقط عد كطفل وستجد الحنان يحف بك من كل الجهات.

بعد ثلاثة أشهر من المتابعة مع الدكتورة «**مادونا**» تحسن حال «**مارلنسكي**» وتقدم لخطبة فتاة تدعى «**ماريا**» بعدما عاد قلبه إلى طفولته.

ثم ذهب للكنيسة ودعا الإله أن يغفر له كل خطاياه. وصار هناك «**مارلنسكي**» الإنسان بعدما لم يكن هناك أي دليل على إنسانيته.

جابريال

1

عندما بذرت حبوبي في رحم من كنت أظن أنها ستنبت لي الورد، فوجئتُ أنني بذرتها في أرضٍ لا تنبت سوى الشوك!

خمسة أبناء، وأعيش وحيدًا، أين عبق العائلة التي كنت أنتظره؟ لماذا تزوجت طالما أنني كنت أنوي أن أهجر!

ثلاثون عامًا وأنا مغتربٌ، إن حبي لجمع المال قضى على ثروتي، فلا سماع لكلمة أبي، ولا شعور بنبض القلب.

عُدتُ فلم أجد من كنت أحبها، تركتني وصفعتني مع الزمان، سرقت روحي، وسرق الزمان عمري.

لمن أرتكن؟ وهي كانت المأوى، ذهبت لأبحث عنها؛ فصعقت عندما وجدتها ممزوجة بالتراب لا فرق بينها وبينه!

ذهبت باحثًا عن عبقها الممزوج في أبنائنا! أين هم؟

يا إلهي! لقد صرت وحيدًا، أليس من المفروض أنهم من ينتظروني بدلًا من أن يجهدونني بالبحث عنهم.

لا شيء يستحق العناء، إن أفضل شيء يريح المرء، ألا يصدم بالواقع، وأن يعيش ينتظر الموت.

يـا أيهـا المـوت، أمـا آن لـك أن تـسرع، أولسـت مشـتاقًا لي كـما أنـا مشـتاق؟ لا يهـم تعـودت ألا أصـدم.

***

2

من مذكرات طبيبة

- لماذا تعيش حياتك وحدك، وتنظر للأشياء من جهة واحدة يا «جابريال»؟

- لأنها تعنيني وحدي يا «ناديا»!

- فلنقل هكذا: أن فرحك دون مراعاة مشاعر الآخرين لدليل على حيوانيتك.

- لماذا تعقدين الأمور هكذا؟ لو أنني سرت على طريقتك التي تحبِّين أن تريني فيها لهو الدليل الأقوى على ذلك. إن من يشعر بالحزن أنا لا أنتِ، فما فائدة أن تُظهري لي أنكِ متألمة لأجلي، وبداخلك ترقصين لأنكِ قد تذكرتِ خبرًا مبهجًا. أليس ذلك خِداعٌ للإنسانية التي تناشدينني بها!

- إنَّك معقَّد! لماذا تحب دائمًا أن تظهر في ثوب الفيلسوف!

- أنتِ التي دومًا تحبذين أن تظهري في دور المرأة الطبية، مع أنك تحملين بغضًا لكلِّ ما حولك، حتى أنا.

- لقد أرهقتني! إلى اللقاء، حاول أن تتصل بي عندما تفيق، فلكنة حديثك تقول إنك مخمور.

كانت محادثة طويلة بحق، إن «**جابريال**» لرجل مُتعب،

لعلـه الآن مرهـق، ويـردد كعادتـه كل مسـاء:

- يـا إلهـي سـاعدني في تذكـر الـذي جـرى. لمَ أنـا وحيـد هكـذا؟ أيـن أبنـائي؟ زوجتـي مـا كان اسـمها؟ مـن ناديـا تلـك؟

ثم يتثاءب، ويغطُّ في نومه العميق.

إن جهـاز المراقبـة خـير مسـاعد لي؛ فمـن دونـه أنـا أجهـل الروتـين اليومـي لمرضـاي.

الحيـاة صعبـة جـدًّا عليـك يـا «**جابريـال**»! لا شيء جديـد تـراه، حديـثٌ عميـق لا داعـي لـه، تخبطـات عقليـة وفقـدان للذاكـرة، عـدم الرغبـة في رؤيـة البـشر، هـل للتعاسـة معـانٍ أخـرى؟

لـو أنـك تذكـر أول مـرَّة رأيتـك فيهـا، كنـت بسَّـامًا، لا أدري لمـاذا أولادك قُسـاة هكذا!

دع ذلـك، أولادك فقـط أم جميـع الأولاد؟ أكـبر السـن يقـسي القلـوب وينفـر عنَّـا البـشر؟ إننـي خائفـة مـن الغـد، خائفـةٌ مـن الحـب، آهٍ يـا مرضـاي، إنكـم تدفنـون بي آلامكـم؛ فأعـذب بهـا وأخـاف أن أكـبر مثلكـم فـلا أجـد فـردًا يعتنـي بي!

لمـن أشـكو، والـكل يشـكو لي، يـا إلهـي لم أكـن أعلـم أن الأمـر سيء هكـذا! أونحـن حقًّـا كـما يقـول «**جابريـال**»:

- مخادعون؟

***

3

من مذكرات رجل شيخ.

اختفت عائلة «**جابريال**» فجأةً من الحي، وهذا ما أثار شكوكًا تجاههم، الأمر قد أُشيع حوله الأقاويل، ولكن الحق أقول لكم:

- إنها كانت امرأة حسنة، كنت أجدها تعمل بجدٍّ لتسد رمق العائلة، فعمل زوجها لم يكن يوفر الكثير من المال.

ذات يومٍ جاءني ابنها «**مايكل**» يخبرني بأن الرب قد اختارها لتكون بجواره، فذهبت معه ودفناها، واختفى الولد ولم ألقاه من بعدها.

عندما وجدت «**جابريال**» حائرًا، ترقرق الدمع لأجل ذلك التعس، سألني عنها وعنهم، فدللته على قبرها، لقد بلل الأرض لدرجة جعلتني أرحل من هناك، فقد كانت دموعه تدل على ألم عميق، ذهبت إلى قبر زوجتي أيضًا، وشكوت لها بدموعي، لماذا يرحل من جعلوا لحياتنا معنى، من تحملوا من أجلنا مشاق الحياة، ومن بعد ذلك لم أراه.

***

4

إن مـا كان يجهلـه الجميـع، أن عائلـة «**جابريـال**» كلهـا قـد ماتـت، «**جابريـال**» نفسـه لم يكـن يعلـم.

تعـددت زياراتـه لناديـا، كان يجـد عندهـا الراحـة، لم تكـن تمـل مـن حديثـه، إن مـا يريـح المريـض أن يجـد مـن يسـتمع لـه بـكل اهتـمام دون مقاطعـة.

وبعـد مـرور مـا يقـرب مـن ثلاثـة أشـهر، كان «**جابريـال**» قـد ودع الحيـاة، فتفحصـت الطبيبـة التسـجيلات، وأخـذت تدونهـا.

هي تتذكر جيدًا قوله لها:

- يـا ناديـا ليـس في تلكـم الحيـاة شيء مريـح، أرواحنـا ممزقـة، أوتدريـن السـبب؟ فـردت عليـه بـلا!

فاستكمل والدموع تسخن وجهه:

- إنها الوحدة التي اختارت أن نعيش فيها هي التي تمزقنا.

❋❋❋

تساؤلات الروح

التناجي مع النفسِ أمرٌ صعبٌ إلى حدٍّ لا يُطاق، يُرهق ألباب بعضهم أحيانًا، ويكون سببًا رئيسًا في كَمدهم.. لكن لا بدَّ منه كلّ فترةٍ، لا بدَّ أن نجثوا أذلاء في حضرة روحنا كي لا تصبح يبابًا.

أجمل بالتناجي صِدقًا مع النفسِ، الصدق يريحها، ويُذهب قلق الفؤاد، ويناغم روحك دون عناء؛ فتشدوا معها متألقًا مرتاح الخاطر.

دعك من حديثي هذا مع نفسي، قد تراني رجلًا مرت عليه الأعوام فزال عقله، تعال أقص عليك قصةً.. أتستمتع بها؟! لا أظن ذلك، لا يهُمني استمتاعك ما يهمني أن أقصَّ.

منذ الأزل وأنا خائفٌ، كنه خوفي لا أعرفه، المهم أنني خائف، ولا ريب أنك خائف مثلي تمامًا والسبب تشابهنا في كل شيء تقريبًا..

أتشم ما أشمه؟ أتنفر من الجسد الذي بدأ في التحلل بجوارك؟ من العجيب أن تدفن في مقبرة جماعية يا صديقي.. ستجد ما لذ وطاب -بالطبع لدينا لا لديهم- من روائح عطنة، ودودٍ يتحرك في تؤدة تجاه كلِّ جزء في جسدك الغريب ليداعبك، والغريب بالأمر سكونك يا صديقي.

أتشاهد ذلك القادم الجديد؟ مسكينٌ هو لا يعرف سجية الأمر، لا يعرف ما ينتظره، لا يعرف أيّ شيء..

تعال معي لقد مللت من القبر، لا لم أمل منه، بل في الحقيقة بعد قليل ستستأنف حلقة رعب تستأنف كلَّ يومٍ في مواعيد محددة أتعرفها؟

أتشم ذلك النسيم الذي يهدأ ضربات صدرك؟ لن تشمه حينما تكون بموضعي أقسم لك بذلك..

لأنك بصدق لست أنا! من أنا؟ لا يهم الآن.

المهم أنني خائف وأنت كذلك أيضًا..

هناك فتاة تسير بغنج ذات قوام رائع وهناك فتى ممشوق القوام يذهب إليها ثم يبدأ معها حديثًا على سرعةٍ ثم يسيرا معًا، هيا بنا لنتبعهما!

الآن هما عاريان تمامًا ويمارسان الرذيلة.

إثمٌ جديدٌ يضاف إلى الفتى والفتاةِ أيضًا.

أنت تفعله أيضًا كُلَّ فترةٍ لا يهم إن كان على الطبيعة كما رأيت الآن أو إن كان من تصوراتك المريضة المهم أنك تفعله.

أتفهمني؟ أم لا تسمع ما أقول من الأساس؟

لقد مللت مرةً أخرى أشعر بك.. تعال لنعد إلى القبر.

صمتٌ مرعبٌ يا صاح، أيخيفك هذا؟ لا أظن!

أترى البرق، تسمع الرعد، وترى ضوءًا ينبعث من الشمس... إلخ من الأمور اللائي يشعر بها أمثالك دومًا؟

لن ترى أيًّا منها عندما تكون مكاني.

ادخل معي إلى مسكني الدائم لا تخف لن تشاهد شيئًا الآن -فمن نعم البصر الذي تملكه أنه محجوب عن عالمي في أثناء تجوالك معي- لكن في يومٍ من الأيام سترى جميع الخفايا.

عليك الآن بتدقيق سمعك.

تحت قدميك عظام تترَّبَت، ولحوم أُكِلَت بشراهة، ومواضع عيون خاوية.

أي مرحلة عكس مرحلة التكوين.. أتشعر بمأساتي؟

لا أخفيك سرًّا كلانا معذبٌ بالانتظار في حياتنا ومماتنا.

أنت تنتظر مصيرك الذي تخاف منه، وأنا أخاف مصيري الذي أعلمه، المعرفة وعدمها خائفان في نفس الحين! ألا يخيفك ذلك؟!

مللت كل ذلك أعرف! وأعرف أنك تريد معرفة من أنا! سأقول لك:

- أنا ذلك الفتى ممشوق القوام الذي كان يضاجع الفتاة، أتدرى أنني بعد مضاجعتها قتلتها.

من أنا أيضًا؟ ألم يكفك ذلك القول المقتضب؟!

حسنًا! ثم ندمت وتبت إلى بارئي، لا أعلم أقُبلت توبتي أم لا! المهم أنني تبت وبعدت عن اقتراف الآثام، ثم كالعادة مت.

وكان حظك التعس أنني كنت أريد التحدث مع أي شيء فلم أجد سواك! من أنا بعد؟ ألم تعرفني؟

***

المحاكمة

تسير النفس في طريقها نحو القلب! وتتجه بسرعةٍ نحو الوتين وعلى حين غرةٍ تثبت مكانها.

ترى جمعًا مأهولًا في الاتجاه المخالف من الشياطين يجلس تجاه اليسار وجمعًا من الملائكة أقل منه تجاه اليمين. فتميل عن الوتين وتتجه نحوهم.

تجد مسلكها في المنتصف تمامًا وفي نهاية ذلك الدرب تجد سجيتها جالسة وبجانبيها طويتها وشيء آخر لم تُعرف ماهيته بعد.

تسأل السجية بلغةٍ حازمةٍ الذات:

- لِمَ كنتِ تريدين الموت؟

- مللت من كل شيءٍ، لا شيء يستحق ذلك العناء الذي أعيشه. حياتي أصبحت خاوية من سجيتي وأصبحت طويتي تأمرني دومًا بالسوءِ والإيذاءِ. لدرجة أنني فكرت في قتل من أهواهم قبل أن أنتحر لكنني قد جبنت.

- أراكِ نفسًا أمارة.

تفوهت سجيتي بذلك.

فوافقتها طويتي.. وعارضهما ذلك الكيان الخاوي من العظمِ واللحمِ بل الأعضاء كافةً أيضًا. هو نار ولسان من لهبٍ..

- لمَ تحدثانها؟ اتركاها تفعل ما تشاء.

فقاطعتاه:

- ولمَ خُلقنا؟ نحن من يتحكم بتلك النفس لا أنت ارحل عنا فسنأمرها بكل خيرٍ.

***

يا إلهي لقد ندمت على ما كنت أنوي فعله. الحمد لكَ لما قد جُدت عليَّ بهِ من سجيةٍ طيبةٍ، وطوية تصحو بعد موتٍ فهي الشيء الوحيد الذي يسير عكس القوانين الدنيوية، فالكل يموت في الدنيا ويبعث في الآخرة إلا هي فتموت في الدنيا وتحيا فيها يا لجودك عليَّ. الحمد لك بسببٍ ومن دون سببٍ.

***

رحلت من تلك المحكمة وأنا أشعر باطمئنان على ذلك الذي يحملني. كل ما عليه أن يترك سجيته وطويته يتحكمان به فسيقودانه إلى أمورٍ لم يخطط لها من قبل.

وعليه أن يُنصت لذلك الهاتفُ الذي يأتيه من طويته!! فهو حتمًا سيعزله عن هاتفٍ يُنشِب بداخله نيران الصراع، صراعٌ بين هاتفنا وبين النفس، حوار يدور، أفعال تُنفَّذ.. نقتل أحدهم، نحب أحدهم، نتزوج أحدهم، نترك أحدهم، نَشي

بأحدهـم، نكـره أحدهـم، نحقـد عـلى أحدهـم.. الوسـاوس تدفعنـا إلى الهاويـة.

فقـط عليـكَ أن تبتعـد عـن تلـك الوسـاوس فتجـدني تحولـت مـن نفـسٍ أمـارة إلى نفـسٍ لوامـة.

***

أكثر من صوت

قبل البداية

***

لا أرض، لا سماء، لا زمان، لا مكان، لا شيء قد وجد بعد. ثم، تم كل شيء، خلقت الكون بما فيه.

رحبت الأرض بالسماء، داعبت شواطئ البحار، وانسجمت مع ما خلقت.

الشمس تشرق كل صباح في وقتها، لكن من قال إن لا شيء يفنى؟ ماتت الأرض.

القبر كان في مكان غير الدنيا، مكان رحب. عندما أفسد الحن والبن في الأرض، أنزلت جمعًا من جنودي ليقتلوهم، وينقلوا الكون/ الأرض إلى كوكب آخر ويدفنوها فيه، وفي كوكب ثان بعثتها.

- أين أنا؟

- في قبرك أيتها النعمة التي سحبت.

- من؟

- صديقك البحر.

- ماذا حدث؟

- لنسأل السماء؟

- أكلنا متنا؟

***

1

النهايات

***

كان لا بـدَّ أن نثـور، فـلا نجـاة إلا بالتخلـص مـن الظلـم، عندمـا اجتمعنـا آخـر مـرة عنـد الملتقـى، اتفقنـا جميعًـا عـلى قتـل الظالمـين، ونحـن نعلـم أن مـا نفعلـه سـيكون ظلـمًا عظيـمًا، لكـن لا يمكـن القضـاء عـلى الظلـم إلا بظلـم، كـما لا يمكـن تنميـة الخـير إلا بخـير.

وفي يـوم اسـتقبال الأطفـال الجـدد، وفي حـين فرحـة زعمائنـا، ذبحناهـم وألقينـا بهـم في رحـم المنبوذيـن، ولم يتبـقَّ عـلى الأرض غيرنـا نحـن الأطفـال القدامـى والأطفـال الجـدد.

***

البئر

***

عندما أُلقي الحن والبن -الذين خرجوا من البحر أول مرة- بداخلي. ورحلوا عني، انغلق البابان، وشعرت بأن ثمة شيء سيحدث.

بعد أسبوع هدموني، وانتهى دوري، في هذه الحياة ودُفِنت ثم بُعِثت.

***

عندما هبطت الملائكة من السماء، عرفنا أن القاعدة التي ستطبق، نحن أو هم.

ليس ثمة فرار، ولا نجاة. وقامت الحرب وقتلنا جميعًا، الحن والبن.

لم يبقَ الآن سوى الأرض، وقد رُويت بدم كثير، وقرر الرب أن يميتها.

***

2

في القبر

❋❋❋

بالرغم من فسحة المكان، إلا أنه كان دامسًا جدًّا ومخيفًا، حتى بالنسبة إلى الأرض.

ماذا أفعل هنا يا إلهي في هذه الوحدة الموحشة؟ لماذا كل هذا؟ ما ذنبي؟ خلقتني للخير فحدث شر، فأفنيتني، أعرف أن كل شيء لديك بمقدار، لكنني أرغب في الحياة. لمَ أموت؟! يا إلهي لقد خلقتني لأُعمِّر فلا تجعل نهاياتي مأساوية.

السماء انكمشت على نفسها، لم يعد شيء كما كان، كل تغيرت هيئته.

الماء أصبح قطرة واحدة، والأرض غدت بقعة تراب لا نفع منها.

أصابهم كل هذا التغير بالهلع، واستمروا في الإلحاح على الإله.

❋❋❋

التحول

***

حـدث شيء غريـب جـدًّا، في أحـد الأيـام، في النهـار تغـيرت حالـة البحـار والأنهـار وكل مـا لـه علاقـة بالمـاء، تحـركات غـير طبيعيـة، شـعرنا جميعًـا بخـوف المخلوقـات التـي تعيـش فينـا.

وفي المسـاء، خرجـت مخلوقـات عجيبـة مـن باطنـي، مخلوقـات تشـبه الشـياطين. أشـكالهم مفزعـه، لا أعـرف كيـف أصـف لكـم؛ لكنـي شـعرت بذلـك، ودائمًـا أصـدق شـعوري.

وبعد ذلك شعرنا جميعًا أننا في خطر جسيم.

***

3

البدايات

***

اجتماع

في مـكان مـا، اجتمـع سـيد الشـياطين مـع سـيد المنبوذيـن، لتحديـد مـا يجـب أن يفعلـه، ويـا ليتهـما مـا اجتمعـا.

سـيد الشـياطين جالـس عـلى عرشـه، والثـاني يقـف منحنيًـا في احـترام.

وعلى حين غرة تحدث الأول في كِبْر:

- لقـد كنـتُ مخطئًـا حـين نفيتُكـم مـن النـار، حسـبت أنكـم عندمـا تشـعرون بالقـوة ستتحسـن أفعالكـم، وبالأخـص أفعالـك يـا سـيد الحـن والـبن.

- يـا مـولاي، أنـت تعلـم مـا بي مـن تناقـض، والقبيلتـان أيضًـا، ولكـم فـررت مـن الزعامـة، وفي النهايـة عينتمـوني رئيسًـا عليهـم.

في غضب:

- فلتدعنا من أمور الحكم، ولننظر إلى ما فعلت.

- مـاذا تقـترح، سـنهلك إن لم يكـن هنـاك نسـل مسـتمر؟ أعـترف بـأني مخطـئ، ولكـن مـا وقـع قـد وقـع.

- حسـنًا، فلتسـمع. وقـال لـه أشـياء مريبـة، ثـم رحـلا كل إلى جماعتـه.

***

زعيم الحن والبن

❋❋❋

كنا مستضعفين ومذلولين في الجحيم، ولم يكن منا واحد يحضر اجتماعات السادة، عوملنا كعبيد للجن والشياطين، وعندما لم يجدوا منا نفعًا؛ نفونا إلى مكان رائع يسمى الأرض، كانت مليئة بالخيرات، ولم يكن يعمرها أحد، فخرجنا من أعماق الماء، وكنا محميون بمادة حافظة للهب أجسادنا.

وعمرنا الأرض وزرعنا وتناسلنا، حتى قتلت آخر امرأة في عشيرتنا، والتقيت بإبليس، وخفت مما حكى لي، كيف سيتحول البئر إلى رحم لنا، فقال لي شيئًا عجيبًا، ولقد أثار دهشتي عندما حدث بالفعل.

❋❋❋

البئر

❋❋❋

سميت في هذا العهد برحم المنبوذين، ولذلك قصة، عندما خرج أولئك الأغراب من الماء واستوطنوا الأرض، وكان ملكهم متناقض الشخصية، فعندما يكون باله رائقًا يكون مولعًا بنساء عشيرته ونهودهن وأردافهن، وجنانهن. وفي حين ينقم منهم، ووقت ذلك يأمر جنوده بقتل من يلاقونه من النساء.

وبيوم ما كان في أوج غضبه، فقام وقتل المرأة الوحيدة الباقية، زوجته.

بعد كل تلك الأحداث، طلب ملاقاة سيد الجن، وأخبره بأمر ما يتعلق بي من شأنه استمرار قبيلته.

ومن يومها صار عمقي فيه نارا بدلاً من الماء، والأرض تمتلك تفاصيل ما حدث.

❋❋❋

4

الإنشيطان

❋❋❋

في عهد غير ذلك العهد، كان هناك كائن نصفه إنسان ونصفه شيطان، قتله ابنه ليضيف قوة أبيه إلى قوته، حيث كان أبوه يسحب أرواح الأشياء لتخلو من الحياة فتزداد قوته، وعندما قام ذلك الابن الغادر بذلك، ذهب إلى الجحيم وعاش هناك، وكانوا كل فترة يأمرونه بسحب بعض الأرواح، والآن حان دور البئر لتسحب روحه؛ الماء، شرب هذا الإنشيطان ما في البئر من ماء؛ فصار البئر جافًّا، وبعد ذلك أمروه ببث بعض النيران في البئر وعمل بابين فيهما، باب منهما للدخول والأخير للخروج.

كان معتادًا الطاعة، فلو خالف لسحبوا روحه وما عاش بينهم.

❋❋❋

البئر

❋❋❋

في أوقات معينة كانوا يأتون على مجموعات، قال لهم زعيمهم كيف يستمر نسلهم، كما حكت لي الأرض من قبل، فكانوا يتناوبون عليَّ، وينتشون ويستمنون في وحالتهم آن ذلك الهياج، وكانت بعض الشياطين تستقبل المني، من خلال الباب المؤدي إلى عالمهم، وبعد فترة ليست بالكثيرة، كان يخرج من الباب المؤدي إلى عالمنا أطفال من الحن والبن في أبشع هيئة، لونهم أخضر، وشعرهم لونه لون النار.

❋❋❋

5

النهايات

❋❋❋

حكاية اللاخطيئة

يسير في الجنة، منتشيًا بتنفس صباحها، وَشدو بلابلها، وخرير جداولها، وإذ به يسمع صوتًا يأمره:

- يا آدم كُلْ مِنْ كُلِّ الأشجار، لكن إياك أن تأكل من شجرة المعرفة. طاعة الرب واجبة يا آدم؛ فهو لن يأمرك بضرر.

ونفذ آدم الأمر ولم يفكر حتى في الشجرة، ثم أخذ يأكل من كل الأشجار وأكل ثمرات كثيرة من شجرة الخلود.

وبعد فترة شعر بالضيق، فذهب آدم نحو شجرة المعرفة لأول مرةٍ وَشرع يناجيها:

- لِمَ أنتِ؟ ما السر؟ يا إلهي لقد ضاقت بي جنتك! قل لي ما الحل؟

ثم ذهب آدم إلى مكانهِ المعتاد، ولمَّا صحا وجد بجانبه حواء، وشعر بالأُنس والأُلفة، فأخذا يطوفان بالجنة ويقطفان من ثمرها، ووصلا إلى شجرة المعرفة، وأرادت حواء أن تقطف منها، فعنفها آدم تعنيفًا شديدًا، وسمع كلاهما أمرًا إلهيًا بعدم الأكل من الشجرة، فعذرت حواء آدم.

عاشا دهورًا في سعادة، ثم شعرا بالضيق، فخلق الرب قابيل وهابيل، وخلق الكثير من الناس، وكل منهم يسمع الأمر مرارًا. لم يفكر أحد في الأكل من الشجرة فطاعة الله رائعة، ما أجمل طاعة الرب، ما أجمل طاعة الرب!

لو أن أحدًا لم يطع الرب فما مصيره؟ لم يجرب أحد ذلك من حُسن الحظ. ولو جربه لكانت النتيجة كارثية. سعادة فقط يعيشونها، ألا بدَّ أن يخطئ أحدهم، لا بدَّ؟ كلهم ينتظرون ذلك المخطئ، ومن الحظِّ لم يخطئ أحد، ما هذه المأساة. إنهم خائفون من المجهول، وخائفون من البدء لمعرفته.

حسنًا هم اختاروا الخلود، وهذا أمرٌ بديهي.

***

6

البداية

❋❋❋

لا أرض، لا سماء، لا زمان، لا مكان، لا شيء قد وجد بعد. ثم، تم كل شيء، خلقت الكون بما فيه.

رحبت الأرض بالسماء، داعبت شواطئ البحار، وانسجمت مع ما خلقت.

بعثت من جديد إلى الدنيا.

الشمس تشرق كل صباح في وقتها، الإنسان يستيقظ ليعيش في الأرض ليلاقي عذاباته.

❋❋❋

فِي الْبَدْءِ كَانَ العدم

حدث الملل، ولا يوجد أي شيء حرفيا، فصار الكون، وكانت الحياة، ثم كتبت المصائر، وكانت النهاية الدرامية المحتومة هي الفناء.

يا رب، لم خلقت كل ذلك؟ ألم تكتب في المصائر عندك في اللوح المحفوظ، أن تلك الحياة مأساة، وأن كل من يقترب منها سيعاني، ويفنى، لماذا كتبت أن آدم سيأكل من الشجرة، وأنه سيسقط في الأرض التي صنعتها ليتعذب هو ومن بعده.

وكتبت لديك ما تخطه يدايّ الآن.

بالفعل حدثت أشياء عظيمة، ولكنها لا تدوم، هل كتب على كل شيء أن ينتهي سريعا سريعا، هذا العالم مجنون وغامض يا ربي، ويصيبني بالجنون، لدرجة أني تصورت بأنه خلق لمدح الجنون ولا شيء آخر.

سأموت في النهاية، لكن قبل أن تأمر بقبض روحي يا رب، عندي سؤال، لمَّ لم نخلق في الجنة من البداية، أما كان سينتهي كل هذا العناء، عندما تكون الجنة هي البداية لن تغدو ثمة جحيم، ولم يكن ثمة إبليس، ولم يكن ثمة ذنوب ولا كره أو أي سيء.

شيء أخير، تعرف الإنسان طماع، ولا يمل من الكلام، الحياة بها أشياء جميلة، الفتاة التي أحب، الفن، الكتب والكتابة، الموسيقى والأصوات الجميلة، أبي الذي مات مبكرا، الاصدقاء، والنساء. لكن الحياة صعبة.

مُتْ!

مُتُ.

***

فهرس القصص

إهداء..... 5
قصص قصيرة..... 11
جامع الفناء1..... 13
جامع الفناء2..... 15
المدينة التي تتكلم..... 17
الاصطدام بالحياة..... 19
الذي صار قصيدة..... 21
حلم فانتازي..... 23
موت طفل..... 25
الحياة على سطح يسقط..... 27
أفكار منتحرة..... 29
الرجل البذرة..... 31
المنعزلون..... 33
الحياة..... 35
قصص..... 37
أرض القصص.. والمنفيون..... 39
الموتى الأحياء..... 43
آكلوا العيون..... 47
مدينة الحياة..... 51
حديث الشجرة..... 53
الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة..... 57
البعث..... 61
اللوحة..... 67

لعنة الاختلاف 71
إنشيطان 73
قسطنطين 81
التاريخ..... 99
مارلنسكي 103
جابريال 109
تساؤلات الروح..... 115
المحاكمة 119
أكثر من صوت..... 123
فِي الْبَدْءِ كَانَ العدم.....139

❋❋❋

للتواصل مع دار لوغاريتم

للتواصل مع الكاتب يوسف الفرماوي

لتقييم العمل وكتابة مراجعتك على موقع goodreads

أهذه هي عدالته؟ إنك لأجل عربات من الدنانير تقيم حربًا وتباركها باسم الرب! يا كارديناليات! أخبروني، لماذا يتَّمتم الأجنة، والرضع، والأطفال.

إنني أعلن براءتي من كل الأرواح المهدرة باسمي، الله لم يأمرني بأخذ الروح عبثًا كما تفعلون.
ثم انصرف من ذلك المجلس، ومشى الموت في الطرق يردد: يا أيها الرجال لا تزرعوا سنابلكم في أرحام نسائكم، فماذا سيلدن لهذا العالم، أطفالًا أم جريمة!

الغلاف بواسطة: أحلام محمد

ISBN 978-977-6799-50-9

لوغاريتم
للنشر والتوزيع